أولاء يتجهون إلى الكعبة المشرفة فى صلاتهم بأمره جل وعلا أيضاً . ولا يقف الرد على القوم عند هذا الحد، إنما يتجاوزه إلى تقرير الحقيقة التي ينبغى أن يعرفها كل واحد، وهي أن الله تعالى يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . وفى ذلك تنبيه للسفهاء من الناس، إلى أن تحويل القبلة إلى البيت العتيق مظهر من مظاهر هداية الله تعالى المؤمنين المتقين إلى الصراط المستقيم أى الطريق الذى لا اعوجاج فيه(١).

(١) تفسير القرطبي ص ٥٣٦ .

﴿١٤٣﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ

وكذلك جعلناكم أمة وسطا ، أى خياراً عدولاً(١) روى الترمذى عن أبي سعيد الخدرى عن النبي ﷺ فى قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا » قال : عدلا . قال : هذا حديث حسن صحيح . وفى التنزيل « قال أوسطهم » : أى أعدلهم وخيرهم . وقال زهير :

هُمُ وَسَطٌ يَرْضى الأنام بحكمهم إذا نزلت إحدى الليالى بمُعْظَمِ

... ووسط الوادى خير موضع فيه وأكثره كلأ وماء . ولما كان الوسط مجانبا للغلو والتقصير كان محموداً ، أى هذه الأمة لم تغل غلوّ النصارى فى أنبيائهم ولا قصروا تقصير اليهود فى أنبيائهم . وفى الحديث : خير الأمور أوسطها(٢) وفلان من أوسط قومه وإنّه لواسطة قومه ووسط قومه أى من خيارهم وأهل الحسب منهم(٣) والوسط اسم لما بين الطرفين . وصف به فأطلق على الخيار من الشىء لأن الأطراف يتسارع إليها الخلل(٤) والأوساط محمية محوطة . ومنه قول الطائى :

كانت هي الوسط المحمى فاكتنفت بها الحوادث حتى أصبحت طرفاً(٥)

ولكونه اسما كان للواحد والجمع والمذكّر والمؤنث بلفظ واحد(٦). ويقول الزمخشرى(٧): « وقد اكتريت بمكة جمل أعرابي للحج فقال : أعطنى من سطاتهن ، أراد من خيار الدنانير » .

---

(١) تفسير الجلالين والكشاف ١ / ٢٤٢ ، ٢٤٣ .
(٢) تفسير القرطبي ص ٥٣٦ ، ٥٣٧ وانظر البحر المحيط ١ / ٤١٨ ، ٤٢١
(٣) تفسير القرطبي ص ٥٣٧ .
(٤) البحر المحيط ١ / ٤١٨ وانظر الكشاف ١ / ٢٤٣ .
(٥) الكشاف ١ / ٢٤٣ وانظر البحر المحيط ١ / ٤١٨ .
(٦) البحر المحيط ١ / ٤١٨ وانظر الكشاف ١ / ٢٤٣ .
(٧) الكشاف ١ / ٢٤٣

وعقب القدم (بكسر القاف) وعقبها (بسكون القاف) مؤخرها مؤنثة[1] وولى على عقبه وعقِبيه إذا أخذ فى وجه ثم انثنى[2] .

وفى الحديث : لا تردهم على أعقابهم أى إلى حالتهم الأولى من ترك الهجرة . وفى الحديث : ما زالوا مرتدين على أعقابهم ، أى راجعين إلى الكفر كأنهم رجعوا إلى ورائهم[3] .

وما كان الله ليضيع إيمانكم . يقال : أضاع الرجل الشيء أهمله ولم يحفظه والهمزة فيه للنقل من ضاع يضيع ضياعاً[4] والمراد بالإيمان الصلاة لاشتمالها على نية وقول وعمل[5] وقد اتفق العلماء على انها نزلت فيمن مات وهو يصلى إلى بيت المقدس . كما ثبت فى البخارى من حديث البراء بن عازب[6] أن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً . وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت وأنه صلى أول صلاة صلاها العصر . وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان صلى معه فمر على أهل المسجد وهم راكعون فقال : أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قِبَلَ مكة . فداروا كما هم قبل البيت . وكان الذى قد مات على القبلة قبل أن تحول قِبَلَ البيت رجالاً قتلوا لم ندر ما نقول فيهم فأنزل الله : « وما كان الله ليضيع إيمانكم . إن الله بالناس لرءوف رحيم » . انفرد به البخارى من هذا الوجه ورواه مسلم من وجه آخر[7] .

لقد ختمت الآية الكريمة السابقة بالقول « يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » . وها هى ذى الآية الكريمة تعطف على سابقتها أو بالأحرى على الجزئية الأخيرة منها : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا » والمعنى : ومثل ذلك الجعل على الصراط المستقيم بأن هديناكم فى حق القبلة إلى البيت العتيق جعلناكم يا أمة محمد ﷺ ، أمة وسطا ، خيارا عدولا لتكونوا شهداء على الناس ، أى فى الحشر على كل الأمم السابقة بأن رسل الله تعالى إليهم قد بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة وكانوا لأممهم الناصحين الأمناء ، وليكون الرسول محمد ﷺ عليكم شهيداً ، أى مزكياً لكم فى شهادتكم لكل الأنبياء والمرسلين ، وفيهم خاتمهم محمد بن عبدالله ﷺ بأنهم قد بلغوا رسالات الله تعالى

(١) لسان العرب « عقب » (٢) نفسه . (٣) نفسه .
(٤) البحر المحيط ١ / ٤١٨ (٥) تفسير القرطبي ص ٥٤٠ .
(٧) تفسير ابن كثير ١/١٨٩ .

« ثبت فى صحيح البخارى عن ابى سعيد الخدرى قال قال رسول الله ﷺ : « يُدْعى نوح عليه السلام يوم القيامة فيقول : لبيك وسعديك يارب . فيقول : هل بلغت ؟ فيقول : نعم. فيقال لأمته هل بلغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير فيقول : من يشهد لك فيقول : محمد وأمته فيشهدون أنه قد بلغ . ويكون الرسول عليكم شهيداً . فذلك قوله عز وجل : وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً . وذكر هذا الحديث مطولاً ابن المبارك بمعناه وفيه : فتقول تلك الأمم كيف يشهد علينا من لم يدركنا فيقول لهم الرب سبحانه : كيف تشهدون على من لم تدركوا فيقولون : ربنا بَعَثْتَ إلينا رسولاً وأنزلت إلينا عهدك وكتابك . وقصصت علينا أنهم قد بلغوا فشهدنا بما عهدت إلينا . فيقول الرب : صدقوا فذلك قوله عز وجل : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا »[1] .

ومع أنَّ القول : ويكون الرسول عليكم شهيداً من معانيه فى رأى أكثر المفسرين : يزكيكم ويُعْلِم بعدالتكم[2] فإن هذه الشهادة تتسع كي تشمل هذه الأقوال : قيل : معناه بأعمالكم يوم القيامة . وقيل : عليكم بمعنى لكم ، أى يشهد لكم بالإيمان . وقيل : أى يشهد عليكم بالتبليغ لكم[3] وقد نص على هذه الآراء الأربعة أبو حيان حيث يقول[4] : « لاخلاف أنَّ الرسول هنا هو محمد ﷺ . وفى شهادته أقوال : أحدها شهادته عليهم أنه بلغهم رسالة ربه . والثانى شهادته عليهم بإيمانهم . الثالث يكون حجة عليهم . الرابع تزكيته لهم وتعديله إيّاهم . قاله عطاء . قال : هذه الأمة شهداء على من ترك الحق من الناس أجمعين . والرسول شهيد معدّل مزكٍّ لهم » . ودليلاً على أهمية هذه الشهادة ، فإنَّ من خصائص هذه الأمة أنها شهداء على الناس[5] أن جاء فى حقه ﷺ صيغة المبالغة « شهيداً » وليس شاهداً . وفى حق أمته ﷺ شهداء الذى هو جمع شهيد ،« لأن ذلك هو للمبالغة ، دون قوله شاهدين أو أشهاداً ، أو شاهداً »[6] ومراعاة للفاصلة تأخرت لفظة « شهيداً » عن نظيرها « شهداء »[7] .

---

(١) تفسير القرطبي ص ٥٣٧ .

(٢) الكشاف ١ / ٢٤٣ يقول أبو حيان فى البحر المحيط ١ / ٤٢٣ ، فإن أكثر المفسرين قالوا معنى شهيداً مزكياً لكم قالوا : وعليكم تكون بمعنى لكم .

(٣) تفسير القرطبي ص ٥٣٩

(٤) انظر البحر المحيط ١ / ٤٢٢ .

(٥) تفسير القرطبي ص ٥٣٨

(٦) البحر المحيط ١ / ٤٢٣ .

(٧) انظر البحر المحيط ١ / ٤٢٢ .

وإن رب العزة إنما جعل القبلة التي كان عليها المصطفى ﷺ قبل الهجرة وبعد الهجرة لمدة ستة عشر شهر تقريباً ، حينما كان يتجه فى صلاته إلى بيت المقدس ، إنما جعل القبلة ليعلم جل وعلا علم ظهور[1] ويرى من يتبع الرسول حينما تتحول القبلة إلى الكعبة المشرفة ، ومن ينقلب على عقبيه مرتداً عن الإسلام الدين الذى رضيه الله تعالى لعباده فى أبشع صور الارتداد حيث استعير له الانقلاب على العقبين[2] وفى الحديث : ما زالوا مرتدين على أعقابهم أى راجعين إلى الكفر كأنهم رجعوا إلى ورائهم[3] : « قال عليّ بن أبي طالب رضى الله تعالى عنه : معنى لنعلم لنرى . والعرب تضع العلم مكان الرؤية . والرؤية مكان العلم ، كقوله تعالى : ألم تر كيف فعل ربك بمعنى ألم تعلم »[4] ووفقا لاتباع الرسول أو الانقلاب على الاعقاب ، يكون الثواب أو العقاب فإن رب العزة الذى ليس للزمن علاقة بعلمه جل وعلا الأزلي ، لا يجازى بسابق علمه ولكن بما كسب المرء من خير أو شر . والمعروف ان القبلة لما حولت ارتد من المسلمين قوم ونافق قوم[5] ظنا ان النبي ﷺ فى حَيْرَةٍ من أمره[6] ولهذا قال : وان كانت لكبيرة . أى تحويلها . قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة . وتقديره فى العربية وان كانت التحويلة[7] لثقيلة شاقة[8] صعبة[9] ووجه صعوبتها ان ذلك مخالف للعادة . لأن من ألف شيئاً ثم انتقل عنه صعب عليه الانتقال . أو أن ذلك محتاج إلى معرفة النسخ وجوازه ووقوعه[10] .

وان مخففة من الثقيلة . واسمها محذوف أى وإنّها[11] وإنْ المخففة هى التي تلزمها اللام الفارقة[12] والمراد ان إنَّ المكسورة الهمزة إذا خففت أهملت غالباً لزوال اختصاصها ، وتلزم لام الابتداء الخبر بعد المهملة فارقة بينها وبين إنْ النافية[13] . يقول

---

(١) الجلالين .
(٢) انظر البحر المحيط ١ /٤٢٥ .
(٣) لسان العرب « عقب » .
(٤) تفسير القرطبي ص ٥٣٩ .
(٥) تفسير القرطبي ص ٥٤٠ .
(٦) الجلالين .
(٧) تفسير القرطبي ص ٥٤٠ .
(٨) الكشاف ١ / ٢٤٤ .
(٩) البحر المحيط ١ / ٤٢٥ .
(١٠) البحر المحيط ١ / ٤٢٥ .
(١١) الجلالين .
(١٢) الكشاف ١ / ٢٤٣ .
(١٣) القواعد الأساسية للغة العربية ص ١٦٦ وإن المكسورة الخفيفة تكون نافية وتدخل على الجملة الاسمية : ان الكافرون الا فى غرور . والفعلية ان أردنا الا الحسنى ، القاموس « إنْ » .

الفيروز ابادى[1] : « وحيث وَجَدْتَ إنْ وبعدها لام مفتوحة فاحكم بأن أصلها التشديد » واسم كانت مضمر على التولية عن البيت المقدس إلى الكعبة . قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة . وتحريره من جهة علم العربية أنه عائد على المصدر المفهوم من قوله : وما جعلنا القبلة ، أيْ وإن كانت الجعلة لكبيرة[2] إلاّ على الذين هدى الله ، أى خلق الهدى ، الذى هو الإيمان فى قلوبهم . كما قال : أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان[3] وهذا استثناء من المستثنى منه المحذوف إذ التقدير : وان كانت لكبيرة على الناس الا على الذين هدى الله[4] .

أما الذين كانوا يتجهون فى صلاتهم إلى بيت المقدس إلى ان توفاهم الله تعالى فإن رحمة البر الرحيم قد وسعتهم كما وسعت الذين لا زالوا أحياء . لأنّهم فى اتجاههم إلى بيت المقدس إنما كانوا يمتثلون أوامر الله تعالى التى أوحى بها إلى رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، فإنَّ هؤلاء يعنيهم القول : وما كان الله ليضيع إيمانكم . والمراد ان رب العزة ما كان يضيع إيمانهم أى ثواب صلاتهم إلى بيت المقدس ، وقد عرفنا ان سبب النزول السؤال عمن مات قبل التحويل[5] .

وقد فسر الإيمان بالصلاة إلى بيت المقدس وكذلك ذكره البخارى والترمذى . وقال ذلك ابن عباس والبراء بن عازب[6] وقتادة والسّدّى والربيع وغيرهم . وكنى عن الصلاة بالإيمان لما كانت صادرة عنه وهي من شعبه العظيمة ... وذكر الإيمان ، وإن كان السؤال عن صلاة من صلّى إلى بيت المقدس لأنّه هو العمدة والذى تصحّ به الأعمال ... وكان ذكر الإيمان أولى من ذكر الصّلاة ، لئلاّ يتوهمّ اندراج صلاة المنافقين إلى بيت المقدس . وأتى بلفظ الخطاب وإن كان السّؤال عمن مات ، على سبيل التغليب ، لأن المصلّين إلى بيت المقدس لم يكونوا كلهم ماتوا »[7] .

---

(١) القاموس « إنْ » .

(٢) البحر المحيط ١ / ٤٢٥ وانظر الكشاف ١ / ٢٤٤ وفيه : قوله : وما جعلنا القبلة التي كنت عليها من الرِدّة أو التحويلة أو الجعلة » .

(٣) تفسير القرطبي ص ٥٤٠ .

(٤) البحر المحيط ١ / ٤٢٥ .

(٥) انظر تفسير القرطبي ص ٥٤٠ والجلالين والبحر المحيط ١ / ٤٢٦ وابن كثير ١ / ١٩٢ .

(٦) البراء بتخفيف الراء . القاموس .

(٧) البحر المحيط ١ / ٤٢٦ .

وتختم الآية الكريمة بهذه الجزئية : « إن الله بالناس لرءوف رحيم » . ومع أن ارتباط هذه الجزئية بسابقتها وثيق ، فمن مظاهر رأفة الله تعالى ورحمته بعباده أنه لا يضيع ثواب المصلين إلى بيت المقدس ، فإن لهاتين الصفتين وراء ذلك علاقة وثيقة بكل الأمور السابقة من كون هذه الأمة قد جعلها الله تعالى خياراً وعدولاً وشهداءعلى الناس هذا إلى هدايتهم إلى الصراط المستقيم فى أمر القبلة وتثبيتهم على الهداية وايتائهم تقواهم . وهذه الجزئية الأخيرة : إن الله بالناس لرءوف رحيم ،« جارية مجرى التعليل لما قبلها ، أى للطف رأفته وسعة رحمته نقلكم من شرع إلى شرع أصلح لكم وأنفع فى الدين »[1] « ولما كان نفي الجملة السابقة مبالغاً فيها من حيث لام الجحود[2] ناسب اثبات الجملة الخاتمة مبالغاً فيها ، فبولغ فيها بإنَّ وباللام وبالوزن على فعول وفعيل ، كل ذلك اشارة إلى سعة الرحمة وكثرة الرأفة »[3] .

---

(١) البحر المحيط ١ / ٤٢٧ .

(٢) لام الجحود عند النحاة هي الواقعة زائدة بعد نفي كان الناقصة .

(٣) البحر المحيط ١ / ٤٢٧ .

﴿١٤٤﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۖ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ

قد للتحقيق(١) ونرى هنا مضارع بمعنى الماضى. وقد ذكر بعض النحويين أن مما يصرف المضارع إلى الماضي قد فى بعض المواضع . ومنه : قد يعلم ما أنتم عليه . ولقد نعلم أنك يضيق صدرك . قد يعلم الله المعوّقين منكم(٢) . ومعنى قد نرى : كثرة الرؤية. كقوله : قد أترك القِرْن مصفراً أنامله(٣) ومعنى تقلب وجهك : تحول وجهك إلى السماء قاله الطبرى ، الزجاج : تقلب عينيك فى النظر إلى السماء والمعنى متقارب(٤) تردد وجهك وتصرف نظرك فى جهة السماء(٥) .

فلنولينك : نحوّلنك(٦) .

ترضاها : تحبها(٧) وتميل إليها لأغراضك الصحيحة التي اضمرتها ووافقت مشيئة الله وحكمته(٨) .

فول وجهك : استقبل فى الصلاة(٩) .

شطر : أى ناحية وجهه(١٠) .

المسجد الحرام : يعنى الكعبة ولا خلاف فى هذا(١١) .

وإن الذين أوتوا الكتاب : يريد اليهود والنصارى(١٢) .

عن ابن عباس . كان أول ما نسخ من القرآن القبلة . وذلك أنّ رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة ، وكان أكثر أهلها اليهود ، فأمره الله ان يستقبل بيت المقدس ففرحت

---

(١) الجلالين .
(٢) البحر المحيط ١ / ٤٢٧ .
(٣) الكشاف ١ / ٢٤٤ .
(٤) تفسير القرطبي ص ٥٤١ .
(٥) الكشاف ١ / ٢٤٤ .
(٦) الجلالين .
(٧) تفسير القرطبي ص ٥٤١ والجلالين .
(٨) الكشاف ١ / ٢٤٤ .
(٩) الجلالين .
(١٠) تفسير القرطبي ص ٥٤١ وانظر البحر المحيط ٤٢٩/١
(١١) تفسير القرطبي ص ٥٤١ .
(١٢) تفسير القرطبي ص ٥٤٣ .

اليهود فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً . وكان يحب قبلة إبراهيم فكان يدعو إلى الله وينظر إلى السماء فأنزل الله : قد نرى تقلب وجهك فى السماء ، إلى قوله : فولوا وجوهكم شطره ، فارتاب من ذلك اليهود وقالوا : ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب . وقال : فأينما تولوا فثم وجه الله . وقال تعالى : وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه[1] عن البراء قال : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة صلّى نحو بيت المقدس ستّة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً . وكان رسول الله ﷺ يحب أن يحوّل نحو الكعبة فنزلت : قد نرى تقلب وجهك فى السماء ، فصرف إلى الكعبة[2] والمشهور أن أول صلاة صلاها إلى الكعبة صلاة العصر . ولهذا تأخر الخبر عن أهل قباء إلى صلاة الفجر[3] .

فى هذه الآية الكريمة يبين رب العزة الذى لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء أنه يرى كثرة تحول وجهه ﷺ إلى السماء وتصرف نظره فى جهتها « إذا سلم من صلاته إلى بيت المقدس »[4] تطلّعا لاستقبال أمر من السماء فى شأن القبلة ، وتشوقاً إلى أن يكون ذلك الأمر بتحويل القبلة إلى المسجد الحرام والكعبة المشرفة لأنها قبلة إبراهيم عليه السلام ، ولأنّه أدعى إلى إسلام العرب[5] وإن رب العزة البر الرحيم ، ليتفضل على عبده وحبيبه ﷺ . بأنه سيوليه عليه الصلاة والسلام قبلة يرضاها ﷺ ويحبها ويتمناها . وليست هذه القبلة التي يرضاها المصطفى ﷺ إلا ما سبق فى علمه وحكمته جل وعلا أن يولي المصطفى ﷺ وأمته إليها ، ألا وهي الكعبة المشرفة . وبهذا يعتبر القول فى الآية الكريمة : « فلنولينك قبلة ترضاها » البشارة الأولى له ﷺ بأن رب العزة سيحقق له أمنيّته التي يتمناها بشأن القبلة . ثم تردف على الفور هذه البشارة الموطّئة بالبشارة المحققة لتلك الأمنية ، وذلك فى قوله تعالى : « فول وجهك شطر المسجد الحرام » أى اتجه فى صلاتك نحو المسجد الحرام . ومع ان الأمر له ﷺ أمر لأمته ، فإن الجو العاطر بشذا البشارة والبهجة يكمل بأمر الأمّة المحمدية بأن تتجه إلى المسجد الحرام فى صلاتها فى أيّ مكان كان أفراد هذه الأمة إلى يوم الدين .

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ١٩٢ .
(٢) تفسير ابن كثير ١ / ١٩٣ .
(٣) تفسير ابن كثير ١ / ١٩٣ .
(٤) تفسير ابن كثير ١ / ١٩٢ .
(٥) الجلالين .

وإذا كان ديدن السفهاء ، وفي مقدمتهم اليهود ، الاعتراض والاحتجاج حمقل وعناداً ، ومن ذلك ما سبق إلى علمه جل وعلا من اعتراضهم على تحويل القبلة ، فإنّ الآية الكريمة تخصّ بالحديث فريقاً رئيسياً من السفهاء ، وهم المعترضون من أهل الكتاب على تحويل القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام ، وُتَبيّنُ أن القوم على علم راسخ من كون نسخ القبلة هو الحق الثابت من ربهم جل وعلا الذى فرضه الله على إبراهيم وذريته[1] فالكعبة قبلة إبراهيم عليه السلام ، ولأنهم يجدون اسم المصطفى ﷺ ونعته مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل فهو نبي صادق لا يأمر ألا بالحق[2] ثم إنهم علموا من دينهم جواز النسخ وان جحده بعضهم فصاروا عالمين بجواز تحوّل القبلة[3] .

والملاحظ أن الجزئية الكريمة يجيء فيها القول : « من ربهم » وليس : «من ربك» وذلك معمق لعناد القوم وطغيانهم . فالمعروف أن لفظ الرب يرتبط به التربية منه جل لعباده وما أسبغ عليهم من نعمه وآلائه ، فينبغي عليهم ان يقوموا بواجب الشكر كفاءها ولكن القوم كفروا النعم وجحدوا الحق عمدا وإصراراً . وتختم الآية الكريمة بتهديد القوم الذين دأبهم الشقاق وديدنهم العناد بأن الله سبحانه وتعالى ليس بغافل عما يعملون وهم الذين يعلمون أنهم يتعمدون ارتكاب كل خطل من الرأى وخطأ من القول وشطط من الفعل ومن ذلك موقفهم من الحق الثابت من ربهم جل وعلا فى أمر القبلة .

« ولا خلاف بين العلماء أن الكعبة قبلة فى كل أفق . وأجمعوا على أن من شاهدها وعاينها فرضٌ عليه استقبالها . وأنه إنْ ترك استقبالها وهو معاين لها وعالم بجهتها فلا صلاة له وعليه اعادة ما صلى . ذكره أبو عمر . وأجمعوا على أن كل من غاب عنها أن يستقبل ناحيتها وشطرها وتلقاءها . فإن خفيت عليه فعليه أن يستدلّ على ذلك بكل ما يمكنه من النجوم والرياح والجبال وغير ذلك مما يمكن أن يستدلّ به على ناحيتها ومن جلس فى المسجد الحرام فليكن وجهه إلى الكعبة وينظر إليها إيماناً واحتساباً ، فإن يروى أن النّظر إلى الكعبة عبادة . قاله عطاء ومجاهد »[4] .

---

(١) البحر المحيط ١ / ٤٣٠ .

(٢) انظر تفسير القرطبي ص ٥٤٣ والبحر المحيط ١ / ٤٣٠ .

(٣) انظر تفسير القرطبي ص ٥٤٣ والبحر المحيط ١ / ٤٣٠ .

(٤) تفسير القرطبي ص ٥٤٢ .

﴿١٤٥﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ

اللام من القول : «ولئن أتيت» والقول «ولئن اتّبعت»: «هى التي تؤذن بقسم محذوف متقدم. فقد اجتمع القسم المتقدم المحذوف والشرط متأخر عنه، فالجواب للقسم. وهو فى الأولى قوله: «ماتبعوا» ولذلك لم تدخله الفاء . وهو فى الثانية: «إنكَ» ولذلك لم تدخله الفاء . وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه(١) .

لقد بيّنت الآية الكريمة السابقة أن الذين أوتوا الكتاب إنما أنكروا تحويل القبلة من قبيل العناد لأنهم على علم قطعي من كون هذا التحول إلى المسجد الحرام فى الصلاة إنما هو الحق الثابت من ربهم جلّ وعلا . ولكنهم دائماً وأبدا هن الذين يكفرون نعم الله تعالى . وفى هذه الآية الكريمة التي نحن بصددها يتم تعميق المعنى السابق . فإذا كان الذين أوتوا الكتاب قد جحدوا آية القرآن الكريم في شأن تحويل القبلة والذى نصّ على كون هذا التحويل هو الحق من الله تعالى ، وعلى كون أهل الكتاب يعلمون ذلك حق العلم ، فإنَّ تعميق هذا المعنى قوى فى قوله تعالى : « ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك » ويلاحظ أن الآية الكريمة التي يجيء فيها كل من القسم والشرط كما عرفنا ولهما دورهما فى توكيد المعنى وتقويته ، ويجيء فيها جملة أتي وذلك فى القول : « ولئن أتيت » والمعروف أن جملة أتى لا تستعمل فى القرآن الكريم إلا دليلا على البعد . والمعنى أنك أيها الرسول الكريم ، لو اجتهدت فأتيت بجوار آية القرآن الكريم بكل آية ممكنة دالة على صدقك بشأن القبلة ، فإن الذين أوتوا الكتاب كَأُمَّة لن يتبعوا قبلتك ، لأنّ إنكارهم تحويل القبلة وليدُ عنادهم وعنتهم وليس وليد شبهة يمكن أن تزول أو استفهام يمكن أن يحصلوا على الجواب الشافى عنه .

وفى هذا القول : « ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك » تسلية للمصطفى ﷺ ، فلا ينبغي له أن يطمع فى إسلام الذين أوتوا الكتاب كَأُمّة ،

---

(١) انظر البحر المحيط ١ / ٤٣٠ ، ٤٣٢ .

ولا ينفي ذلك دخول أفراد وجماعات من أهل الكتاب فى دين الإسلام الذى رضيه الله تعالى لعباده . وإنَّ الأدلة من الواقع أكثر من يأتي عليها الحصر .

وإذا كان الذين أوتوا الكتاب لن يتبعوا كَأُمَّة قبلة المصطفى ﷺ ، رغم كون الإسلام ناسخا للديانات قبله ، فإن الآية الكريمة تبيّن أنّ المصطفى ﷺ لن يتبع قبلة الذين أوتوا الكتاب ، وهذا من باب الأَوْلى والأَحْرى لأن الدّين عند الله الإسلام . وقد قال تعالى « وما أنت بتابع قبلتهم » : « لفظ خبر ويتضمن الأمر ، أى فلا تركن إلى شيءٍ من ذلك »(١) « وهذه الجملة أبلغ فى النفي من حيث كانت اسمية تكرر فيها الاسم مرتين ، ومن حيث أكد النفي بالباء فى قوله : بتابع »(٢) .

والآية الكريمة تبيّن وراء ذلك أن بعض الذين أوتوا الكتاب ليس بتابع قبلة بعض : « وما بعضهم بتابع قبلة بعض » فلا ينبغي أن يتبادر إلى الذهن ويسبق إلى الرُّوع أن للّذين أوتوا الكتاب قبلة واحدة فهم مستمسكون بهذه القبلة الواحدة . ان لليهود قبلتهم . وللنصارى قبلتهم . « وذلك أن اليهود تستقبل بيت المقدس والنصارى مطلع الشمس »(٣) وقد عبر من ذى قبل عن هاتين القبلتين بلفظ القبلة « وما أنت بتابع قبلتهم » لأن كلاً من القبلتين تبع للدينين اللذين نسخهما الإسلام .

ونتبين فى هذه الجزئية الكريمة مظهراً من مظاهر إعجاز القرآن فى الإنباء بالغيب ، ففيها « اشارة إلى أن اليهود لاتتنصر . وإلى أن النصارى لاتتهود . وذلك لما بينهما من إفراط العداوة والتباغض . وقد رأينا اليهود والنصارى كثيراً ما يدخلون فى ملّة الإسلام . ولم نشاهد يهودياً تنصّر . ولا نصرانياً تهوّد »(٤) .

وإذا كانت الآية الكريمة السابقة قد عبرّت عن التحول إلى الكعبة المشرفة بكونه الحق وذلك فى القول : « وان الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنّه الحق من ربهم » فإنَّ هذه الآية الكريمة تعمّق هذا المفهوم فى حق الكعبة المشرفة من ناحية وذلك حينما تشير

---

(١) تفسير القرطبي ص ٥٤٤ .
(٢) البحر المحيط ١ / ٤٣٢ .
(٣) الكشاف ١ / ٢٤٥ والبحر المحيط ١ / ٤٣٢ .
(٤) البحر المحيط ١ / ٤٣٢ .

إلى كون ما جاءه ﷺ من ربه فى أمر القبلة هو العلم . وما أرفع منزلة العلم فى الإسلام . وها هي ذى الآية الكريمة تقوّى من تلك المنزلة . كما أن الآية الكريمة من ناحية أخرى تصف ما يتبع الذين أوتوا الكتاب بكونه الهوى بل الأهواء ، هكذا فى صيغة الجمع ومن ثَمَّ هي تحذره ﷺ ، بل تبالغ فى تحذيره من اتباع أهواء القوم . « ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم » « وأكثر استعمال الهوى فيما لا خير فيه . وقد يستعمل فى الخير . وأصله الميل والمحبة . وجُمِع وإن كان أصله المصدر لاختلاف أغراضهم ومتعلقاتها وتباينها »(١) .

ويلاحظ أن جملة جاء التي لاتستعمل في القرآن الكريم إلا دليلاً على القرب ، هي التي تجيء مع العلم ، دليلاً على تحقق وقوع هذا العلم وحصوله « من بعد ما جاءك من العلم » ، ويفهم من ذلك منزلة العلم الرفيعة فى الإسلام . فإنه جل وعلا « سمّى تلك الدلائل علماً مبالغة وتعظيماً وتنبيهاً على أن العلم من أعظم المخلوقات شرفاً ومرتبة . ودلت الآية على أن توجّه الوعيد على العلماء أشد من توجهه على غيرهم »(٢) وقوله تعالى : « ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنّك إذا لمن الظالمين » . « الخطاب للنبي ﷺ . والمراد أمته ، ممن يجوز أن يتبع هواه فيصير باتباعه ظالماً . وليس يجوز أن يفعل النبي ﷺ ما يكون به ظالماً . فهو محمول على ارادة أمته لعصمة النبي ﷺ وقَطْعِنا أن ذلك لايكون منه . وخوطب النبي ﷺ تعظيماً للأمر ، ولأنه المنزل عليه »(٣) « وتعليق وقوع الشيء على شرط لايقتضى إمكان ذلك الشرط »(٤) .

---

(١) البحر المحيط ١ / ٤٣٣ .
(٢) البحر المحيط ١ / ٤٣٣ .
(٣) تفسير القرطبي ص ٥٤٤ .
(٤) البحر المحيط ١ / ٤٣٢ .

﴿١٤٦﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ

دار حديث الآية الكريمة السابقة عن المصطفى ﷺ ، فى هيئة خطابه ﷺ إخباراً وأمراً وإنذاراً . وكانت الآية الكريمة السابقة عليها قد نصّت على كون الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أن تحويل القبلة هو الحق الثابت عنه جل وعلا . وها هي ذى الآية الكريمة تتحدث في جملة مستأنفة عن أولئك الذين آتاهم الله تعالى الكتاب : « الذين آتيناهم الكتاب » والمراد بهم اليهود والنصارى[١] وعليه فالمراد بالكتاب التوراة والإنجيل[٢] وتنص الآية الكريمة على كون هؤلاء الذين آتاهم الله تعالى التوراة والانجيل ، يعرفون المصطفى ﷺ ، الذى كان حديث الآية السابقة عنه فى هيئة الخطاب له ، وهاهي ذى الآية الكريمة التالية يتم فيها الالتفات إليه ﷺ وذلك باستعمال ضمير الغائب العائد إليه ﷺ : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه »[٣] ويؤكد كون الضمير لرسول الله ﷺ ما روى أن عمر سأل عبدالله بن سلام رضي الله عنهما وقال : إنَّ الله قد أنزل على نبيه : الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه الآية . فكيف هذه المعرفة ؟ فقال عبدالله : ياعمر ، لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابنى . ومعرفتي بمحمد ﷺ أشد من معرفتي بابنى . فقال عمر : وكيف ذلك؟ فقال : أشهد أنه رسول الله حقاً . وقد نعته الله فى كتابنا ولا أدرى مايصنع النساء فقال عمر : وفّقك الله يا ابن سلام فقد صدقت ... فقبل عمر رأسه[٤] .

والذى يرجح عودة الضمير إلى المصطفى ﷺ بأكثر من عودته إلى الحق الذى هو التحول إلى الكعبة[٥] ، أو القرآن[٦] ، أو العلم[٧] ، أو إلى كون البيت الحرام قبلة إبراهيم[٨] هو كون المشبه به محسوساً وهو الأبناء ، فثمة تشابه فى معرفة الشكل

---

(١) انظر البحر المحيط ١ / ٤٣٤ . (٢) انظر البحر المحيط ١ / ٤٣٤ .
(٣) انظر تفسير القرطبي ص ٥٤٥ والبحر المحيط ١ / ٤٣٥ والجلالين والكشاف ١ / ٢٤٥ .
(٤) البحر المحيط ١ / ٤٣٥ وانظر تفسير القرطبي ص ٥٤٥ وتفسير ابن كثير ١ / ١٩٤ .
(٥) البحر المحيط ١ / ٤٣٥ والكشاف ١ / ٢٤٥ . (٦) البحر المحيط ١ / ٤٣٥ الكشاف ١ / ٢٤٥ .
(٧) البحر المحيط ١ / ٤٣٥ والكشاف ١ / ٢٤٥ . (٨) البحر المحيط ١ / ٤٣٥ .

والصورة لكل من المصطفى ﷺ والأبناء . وهذا الرأى الذى يذهب إلى عودة الضمير مِنْ يعرفونه إليه ﷺ « قاله مجاهد وقتادة وغيرهما . وروى عن ابن عباس . واختاره الزجّاج ورجّحه التبريزى . وبدأ به الزمخشرى »(١) .

وانظر إلى فضل الله تعالى على أهل الكتاب فى التعبير « آتيناهم » المتضمن لنون العظمة إذ لم يأت التعبير فى مثل هذه الصورة مثلاً : « الذين أوتوا الكتاب » وهذا الفضل من الله تعالى على أهل الكتاب يفهم منه ضرورة قيام أهل الكتاب فى المقابل بما يجب عليهم من شكر لله تعالى على نعمه وآلائه . ومن أهم مظاهر شكر الله تعالى التصديق بخاتم الأنبياء والمرسلين الذى يعرفون وصفه حقيقة كما يعرفون أبناءهم ، لأنهم « يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم »(٢) وعلى الرغم من معرفة الذين آتاهم الله تعالى الكتاب التامة بحقيقة المصطفى ﷺ ، فإن فريقاً منهم يكتمون الحق وهم يعلمون أنهم يكتمون الحق ، وذلك منتهى الظلم للحق وللمعرفة وللعلم .

ومع أن الحق الذى كتموه يصح أن يشمل كل حق ومن ذلك التوجه إلى الكعبة فى أثناء الصلاة(٣) ، وسبق أن جاء فى شأن تحويل القبلة قوله تعالى: « وإنَّ الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم » فإنَّ الحق المكتوم هنا يشمل فى المقام الأوّل كتمان نعت رسول الله ﷺ(٤) قاله مجاهد وقتادة وخُصَيف(٥) .

---

(١) البحر المحيط ١ / ٤٣٥ .
(٢) سورة الاعراف : ١٥٧ .
(٣) انظر تفسير القرطبي ص ٥٤٥ والبحر المحيط ١ / ٤٣٦ .
(٤) انظر البحر المحيط ١/٤٣٦ وتفسير الجلالين وتفسير ابن كثير ١/١٩٤ .
(٥) تفسير القرطبي ص ٥٤٥ .

﴿ ١٤٧ ﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ

الحق من ربك . قرأ الجمهور برفع الحق على أنه مبتدأ . والخبر هو من ربك . فيكون المجرور فى موضع رفع . أو على أنه خبر مبتدأ محذوف أى هو الحق من ربك(١) .

فلا تكونن من الممترين ، أى من الشاكين(٢) والامتراء فى الشيء الشك فيه وكذا التمارى ... والمرية الشك وقد تضم . وقرىء بهما(٣) .

بيّنت الآية الكريمة السابقة أن فريقاً من الذين أوتوا الكتاب ليكتمون الحق وهم يعلمون . ومع ان لفظ الحق عام إلا أنه انصرف فى الآية الكريمة فى الراجح إلى صفته ﷺ ونعته . كما بيّنت من قبل الآية الكريمة الرابعة والأربعون بعد المائة أن الذين أوتو الكتاب ليعلمون أن تحويل القبلة إلى المسجد الحرام هو الحق الثابت من ربهم . وها نحن أولاء نصادف لفظة الحق فى الآية الكريمة التي نحن بصددها « الحق من ربك فلا تكونن من الممترين » وبما أن الخطاب للمصطفى ﷺ والمراد أمته(٤) فمن ثم ينصرف الحق من رب المصطفى ﷺ إلى ما جاء به الرسول ﷺ من ربه جل وعلا وفى مقدمة ذلك القرآن الكريم الذى جاء فيه الحق الذى يعلمه الذين أوتوا الكتاب بشأن القبلة ، والحق الذى يعرفه الذين أوتوا الكتاب كما يعرفون أبناءهم بشأن نعته ﷺ والذى يكتمه فريق منهم .

وبهذا يتبين أن لفظة الحق هنا يندرج تحتها كل أنواع الحق التي أشارت إليها الآيات الكريمة ، ووراء ذلك هي تتجه بقوة إلى الكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وكأن لفظة الكتاب فى الآية الكريمة السابقة على جهة الخصوص « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » هي التي رشحت لفظة الحق كي تتجه كذلك إلى هذا المعنى الجديد . وبذلك تضيف الآية الكريمة معنى جديداً إلى لفظة الحق ، وتأخذ بالتالي بسبب من قوله تعالى فى سورة يونس(٥) : « فإن كنت فى

---

(١) البحر المحيط ١ / ٤٣٦ وانظر تفسير القرطبي ص ٥٤٥ .
(٢) تفسير القرطبي ص ٥٤٥ و ص ٥٤٦ والكشاف ١ / ٢٤٦ والبحر المحيط ١ / ٤١٩ والجلالين .
(٣) تفسير القرطبي ص ٥٤٥ .
(٤) انظر تفسير القرطبي ص ٥٤٥ والكشاف ١ / ٢٤٦ .
(٥) الآية : ٩٤ ، ٩٥ .

شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين . ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين » .

وإن اصطباغ لفظة الحق فى كل مرة من المرات الثلاث بلون مغاير بأكثر من الألوان الأخرى ، فالحق فى مرة يتجه أساساً إلى أمر القبلة ، وفى أخرى إلى نعته ﷺ ، وفى ثالثة إلى الكتاب العزيز ، ليعتبر مظهراً من مظاهر اعجاز القرآن الكريم الذى تتتابع فيه موجات المعاني جديدة قديمة كلّ مرة .

وانظر إلى الاعجاز فى الايجاز مع تدفق المعانى فى القول : « الحق من ربك » فلفظة الرب تستعمل فى القرآن الكريم حينما يكون المعنى متجهاً إلى الخصوص ، وحينما يكون الجو مفعماً بشذا الإنعام ، فكيف إذا لحق بلفظ الرب الضمير العائد على المصطفى ﷺ ؟ ان كل هذه الملابسات مشعرة بكون شكر المنعَم عليه كفاء هذه النعم والآلاء ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، سيكون كبيراً . لذا كان النهي فى المقابل كبيراً عن أولى الملابسات التي قد تؤدى إلى عدم الشكر . إنّه ﷺ لا يقال له مثلاً لا تمتر(١) أولا تشك أولا تكن ممترياً أو شاكاً إنما يقال له فى صيغة مؤكدة « فلا تكونن من الممترين » بمعنى لا تكن واحداً من الممترين الشاكين ولا تكن واحداً من المتصفين بهذه الصفة « والنهى عن كونه منهم أبلغ من النهي عن نفس الفعل »(٢) . إن الصيغة القرآنية فيها النَّهيْ « عن الكون بهذه الصفة والنهي عن صفة أبلغ من النهي عن تلك الصفة »(٣) . « وأكد النهي بنون التوكيد مبالغة في النهى . وكانت المشدّدة لأنها أبلغ فى التأكيد من المخفّفة . والمعنى فلا تكونن من الذين يشكّون فى الحق ، لأن ما جاء من الله تعالى لا يمكن أن يقع فيه شك ولا جدال ، إذ هو الحق المحض الذى لا يمكن أن يلحق فيه ريب ولا شك »(٤) .

---

(١) الجلالين .
(٢) البحر المحيط ١ / ٤٣٦ .
(٣) البحر المحيط ١ / ٤٣٧ .
(٤) البحر المحيط ١ / ٤٣٧ .

﴿١٤٨﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

ولكل : بمعنى ولكل صاحب ملة(١) ولكل طائفة من أهل الأديان(٢) ولكلٍّ من الأمم(٣) وأهل الأديان المختلفة(٤) .

وجهة : الوجهة وزنها فعلة من المواجهة والوجهة والجهة والوجه بمعنى واحد . والمراد القبلة(٥) والمراد أنهم لا يتّبعون قبلتك وأنت لا تتّبع قبلتهم . ولكلٍّ وجهة إمّا بحق وإمّا بهوى(٦) .

هو : عائد على لفظ كل لا على معناه لأنّه لو كان على المعنى لقال هم مولّوها وجوههم(٧) .

مولٍّ : اسم فاعل من فعلٍ يتعدى إلى مفعولين(٨) .

هو موليّها المراد هو موليها وَجْهَهُ فى صلاته(٩) فالهاء والألف مفعول أول(١٠) والمفعول الثانى محذوف لفهم المعنى . أى هو موليها وجهه أو نفسه . قاله ابن عبّاس وعطاء والربيع(١١) .

والاستباق : افتعال من السبق وهو الوصول إلى الشيء أوّلا(١٢) فاستبقوا الخيرات : أى إلى الخيرات فحذف الحرف(١٣) أى بادروا إلى الطّاعات وقبولها(١٤) واسبقوا إليها غيركم من أمر القبلة وغيره(١٥) .

هذه الآية الكريمة التي تتحدث عن قبلة كل طائفة من أهل الأديان تعتبر امتداداً

---

(١) تفسير القرطبي ص ٥٤٦
(٢) البحر المحيط ١ / ٤٣٧
(٣) الجلالين
(٤) الكشاف ١ / ٢٤٦
(٥) تفسير القرطبي ص ٥٤٦ وانظر الجلالين والكشاف ١ / ٢٤٦
(٦) تفسير القرطبي ص ٥٤٦
(٧) تفسير القرطبي ص ٥٤٦
(٨) البحر المحيط ١ / ٤٣٨.
(٩) الجلالين
(١٠) تفسير القرطبي ص ٥٤٦
(١١) البحر المحيط ١ / ٤٣٧ وانظر تفسير القرطبي ص ٥٤٦
(١٢) البحر المحيط ١ / ٤١٩
(١٣) تفسير القرطبي ص ٥٤٧
(١٤) الجلالين
(١٥) الكشاف ١ / ٢٤٦ .

لمختلف النعوت التي خلعتها الآيات الكريمات على القبلة التي ولّى الله سبحانه وتعالى إليها المسلمين بقيادة المصطفى ﷺ . فإذا كانت صفتا الحق والعلم بالذّات من نعوت التحول فى الصلاة إلى المسجد الحرام فإن الآية الكريمة تأمر المسلمين بأن يستبقوا الخيرات ، ابتداءً بالقبلة التي اصطفاهم الله تعالى بالتوجه إليها ، وذلك بعد تقرير الحقيقة القائمة من كون كل أمة من الأمم لها قبلتها الخاصة بها ، فواجب المسلمين إذن أن يشكروا الله تعالى كفاء الاصطفاء بهذا النوع من الخير .

وإذا كان لكل أمة من الأمم وجهتها في صلاتها وقبلتها ، ويتبع الاتجاه هذه الوجهة انسياح فى أرض الله تعالى ، فإن الآية الكريمة تبين ان الخلائق مهما تفرقت بهم السبل ونأت بهم الدار ، فإن الله سبحانه وتعالى سوف يأتي بهم . ويلاحظ جملة « يأت » التي تستعمل فى القرآن الكريم دليلاً على البعد « أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً » .

وتختم الآية بما يدل على قدرته عز وجل المطلقة : «إن الله على كل شيء قدير» فلا شيء يعجز الله تعالى فى السماء ولا فى الأرض .

﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ

إذا كان قوله تعالى : « فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام » ظاهره أنه أمر له ﷺ باستقبال الكعبة المشرّفة وهو مقيم فى المدينة المنورة ، فإن هذه الآية الكريمة: «ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام...» تشمل حاله ﷺ حال السفر . وبذلك يتساوى المقام والسفر ، الحل والترحال ، فى وجوب التوجه إلى المسجد الحرام فى أثناء الصلاة .

ومعنى « ومن حيث خرجت » من أيّ مكان خرجت لسفر أيها الرسول الكريم وأيّ بلد غادرت .

وعلى غرار ذكر الحق وذكر الرب فى قوله تعالى : « وإنّ الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم » وقوله تعالى : « الحق من ربك فلا تكونن من الممترين » يجيء هنا قوله تعالى « وإنه للحق من ربك » و « هذا اخبار من الله تعالى بأن استقبال هذه القبلة هو الحق ، أى الثابت الذى لا يعرض له نسخ ولا تبديل »[1] . وإنّ لفظة الرب ، التى يأتى استعمالها فى القرآن الكريم فى مجال الخصوص ، يُفْهَمُ منها منزلته ﷺ عند بارئه جل وعلا والتنبيه على وجوب شكر الله تعالى على نعمه وآلائه ، ومن هذه النعم التولية فى الصلاة إلى المسجد الحرام . وإذا كان الخطاب له ﷺ فالمراد فى الحقيقة الأمة المحمدية . وما قيل عن وجوب الحذر وعدم الغفلة بشأن قوله تعالى عن الذين أوتوا الكتاب « وما الله بغافل عما يعملون » يقال هنا بشأن قوله تعالى خطاباً لهذه الأمة « وما الله بغافل عما تعملون » .

---

(١) البحر المحيط ١ / ٤٣٩ .

﴿١٥٠﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ

تبين أن قوله تعالى : « فَوَلِّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولواوجوهكم شطره » يتعلق بالتّوجّه فى الصلاة إلى المسجد الحرام فى أثناء الإقامة . وتبين أن قوله تعالى : « ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وإنّه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون » يتعلق بالتوجه فى الصلاة إلى المسجد الحرام فى أثناء السفر . وها نحن أولاء نصادف التعبير السابق ذاته المتعلق بالتوجه إلى القبلة فى أثناء السفر : « ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام » وهذا من باب التأكيد لأن النسخ مما قد يرتبط به الفتنة والشبهة وتسويل الشيطان للطعن فى تبديل قبلة بقبلة . كما أنا نصادف فى الآية الكريمة التعبير المرتبط بالتوجه إلى القبلة فى أثناء الإقامة : « وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » والمعنى هنا : في أى مكان ناء كنتم فيه أثناء السفر ، فأنتم مأمورون بأن تولّوا وجوهكم شطر البيت العتيق .

وقد بينت الآية الحكمة من هذا التأكيد بشأن الحق من الله تعالى فى أمر تحويل القبلة إلى المسجد الحرام : « وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة الا الذين ظلموا منهم » .

إنَّ رب العزة يبيّن أنَّ أهل العناد من الناس اليهود ومشركي العرب ومن لف لفهم ، سيكون لهم المواقف السابقة ذاتها المناوئة للدعوة إلى صراط العزيز الحميد ، يبيّن ذلك من أجل دحض حجة هؤلاء الخصوم « بمعنى المحاجة ، أى المخاصمة والمجادلة »[1] فاليهود مثلاً يقولون : يجحد ديننا ويتبع قبلتنا[2] والمشركون يقولون : يدّعي ملّة إبراهيم ويخالف قبلته[3] إن رب العزة يبيّن لك أنّ التوّلية إلى المسجد الحرام هي الحقّ الثابت من

---

(١) تفسير القرطبي ص ٥٥١ .
(٢) الجلالين .
(٣) الجلالين .

الله تعالىٰ والذى يعرفه أو يستطيع أن يعرفه كل من منّ الله تعالى عليه بنعمة العقل وأحسن الانتفاع به . أما الظالمون من الناس أصحاب الأهواء وأرباب العناد ، فإنّهم يظلون يثيرون الشكوك والشبهات والترهّات . وهؤلاء لا قيمة لهم ولا وزن ، فلا ينبغي لمسلم أن يخشى واحداً من هؤلاء المتعنتين لأنهم يهوون الجدل بالباطل لذاته . إنّما واجب المسلم أن يخشى الله تعالى رب العالمين وحده لا شريك له « والخشية أصلها طمأنينة فى القلب تبعث على التوقى »[1] .

وإنَّ من تمام نعمة الله تعالى على المسالمين هدايتهم إلى القبلة فى الصلاة[2] وما يترتب على الصلاة التي هي عماد الدين ، من خيرات لاحصر لها ، تتوَّج بإذن الله تعالى بدخول الجنة .

« ولأتم نعمتي عليكم ، معطوف على لئلاّ يكون[3] ، « وكأن المعنى : عرّفناكم وجه الصواب فى قبلتكم والحجة لكم لانتفاء حجج الناس عليكم ، ولإتمام النعمة ، فيكون التعريف معللاً بهاتين العلتين . والفصل بالاستثناء وما بعده كلا فصل . إذ هو من متعلق العلّة الأولى »[4] .

وقد ختمت الآية الكريمة برجاء الهداية المطلقة إلى الحق لأفراد الأمة المحمدية ، وبخاصة فى ميدان القبلة « ولعلكم تهتدون » « أي إلى ما ضلت عنه الأمم هديناكم إليه وخصصناكم به . ولهذا كانت هذه الأمة أشرف الأمم وأفضلها » .[5] .

---

(١) تفسير القرطبي ص ٥٥١ .
(٢) انظر القرطبي ص ٥٥٢ .
(٣) تفسير القرطبي ص ٥٥٢ والبحر المحيط ١/٤٤٢ وتفسير ابن كثير ١/١٩٥ .
(٤) البحر المحيط ١/٤٤٣ .
(٥) تفسير ابن كثير ١ / ١٩٥ .

﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾

يتلو عليكم آياتنا : آيات الكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

يزكيكم : يطهّركم من رذائل الأخلاق ودنس النفوس وأفعال الجاهلية . ويخرجكم من الظلمات إلى النور[1] .

الكتاب : هو القرآن[2] .

الحكمة : هي السنة[3] .

أشارت الآية الكريمة السابقة إلى فضل الله تعالى على هذه الأمة بإتمام النعمة عليها بشأن القبلة . قال تعالى « ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون » وفى هذه الآية الكريمة نحن نصادف كاف التشبيه ، مما يفهم معه تنزيل إتمام النعمة بشأن القبلة منزلة المشبه أما المشبه به فهو إرسال الرسول . قال تعالى : « كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم ...» فالكاف هنا للتشبيه ، وهي في موضع نصب على أنها نعت لمصدر محذوف . واختلف فى تقديره فقيل : التقدير ولأتم نعمتي عليكم إتماماً مثل إتمام إرسال الرسول فيكم[4] .

إنَّ ربَّ العزة يقرن إتمام النّعمة على هذه الأمة بهدايتها إلى القبلة الأخيرة الّتى لا قبلة بعدها ، وبين نعمة إرسال المصطفى ﷺ فى هذه الأمة منها ، وهو الذى لا نبي بعده ﷺ ولا رسول . ان هاتين النعمتين من أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة المحمدية . فقد اصطفاها الله تعالى بأن تتجه فى الصلاة إلى قبلة إبراهيم عليه السلام وهو المسجد الحرام الذي تعظمه وتحج إليه . كما اصطفاها جل وعلا بمحمد بن عبدالله ﷺ خاتماً للأنبياء والمرسلين مصطفى منها ، من ذرية إسماعيل عليه السلام بينما كان الأنبياء السابقون من ذرية إبراهيم عليه السلام من ذرية إسحاق عليه السلام. وإن الجمع فى التشبيه بين هاتين النعمتين مقو لكل منهما .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ١ / ١٩٦ (٢) تفسير ابن كثير ١ / ١٩٦ .

(٣) تفسير ابن كثير ١ / ١٩٦ .

(٤) البحر المحيط ١ /٤٤٣ وانظر تفسير القرطبي ص ٥٥٢ والكشاف ١/٢٤٦ .

وتذكر الآية الكريمة مجموعة من صفات المصطفى ﷺ ، بعد أن ذكرت أولاً الصفة الثابتة غير المتجددة ، وهو كونه عليه الصلاة والسلام فى العرب ومنهم . ولد فيهم وترعرع بين ظهرانَيْهِمْ وذاع ذكره الحسن بينهم وخُلُقُه العظيم فيهم . إنَّ هذه النعوت سابقة على كل ما يأتى به الداعية من قول . وما يأمر به من خير وينهى عنه من شر . ولذا قدمت الآية الكريمة فى الذكر هذه الحقيقة .

وتأتي النعوت بعد ذلك فى صيغة الزمن المضارع الدال على تجدد الصفة . فالمصطفى ﷺ يتلو على هذه الأمّة آيات الله تعالى التي أوحاها جل وعلا إليه بلسان عربي مبين . ثم هو يطهرهم تطهيراً من كل أدران الجاهلية الجهلاء ، وبخاصة درن الإشراك من الله تعالى غيره . والمعروف أن المصطفى ﷺ نجح فى القضاء على الوثنية وعلى كل عادات القوم البغضية نجاحاً لم يقدر لأيّ من الرسل السابقين . إنَّ القضاء على الشرك وأدران الجاهلية ، وفى ذلك تزكية هذه الأمة من ذلك الذنب الأكبر وتطهيرها منه ومن كل متعلقاته . يلى ذلك تعليم الرسول الكريم هذه الأمة القرآن الكريم وسنته ﷺ ، وهما عماد هذه الأمة وركيزة علمها وعزها وسؤددها . لأن كلا من الكتاب والحكمة موحى بهما من الله تعالى إلى رسوله الكريم ﷺ . وقد أمر الله تعالى فى كتابه العزيز ، أمهات المؤمنين ، وهن الأسوة الحسنة للمؤمنين والمؤمنات ، بأن يذكرن ما يتلى فى بيوتهن رضوان الله تعالى عليهن من آيات الله والحكمة ، أى القرآن الكريم وسنة المصطفى ﷺ بإجماع العلماء . قال تعالى[1] : « واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة . إن الله كان لطيفاً خبيراً » .

وبعد أن وضعت قاعدة العلم الرئيسية فى الإسلام وهما الكتاب والسنة عمق هذا الخصوص وأردف بعموم . فالمصطفى ﷺ كما يُعَلّم أفراد الأمة الكتاب والسنة ، يعلّمهم ما لم يكونوا يعلمون . وما أكثر هذا الذى لا يعلمه أولئك ، وهم الموصوفون فى العديد من المواضع فى القرآن بكونهم أساساً أميين . وببركة المصطفى ﷺ تحول أولئك الأميون ، فضلاً من الله ونعمة ، إلى كونهم يُنْعتون فى القرآن الكريم بأنهم أوتوا

(١) سورة الاحزاب : ٣٤ .

العلم ، أى أوتوا العلم اللدنى الذى يمتن الله تعالى به على من شاء من عباده ولا رادّ لفضله جل وعلا ولا معقب لحكمه . قال تعالى[1] : « ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا ، أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم » ويلاحظ ان صفة العلم تخلعها الآية الكريمة على أصحاب المصطفى ﷺ ، وهم الذين وصفوا من قبل فى العديد من المواضع فى القرآن الكريم بكونهم أميين .

إن هذه النعم الكثيرة الجليلة من الله تعالى على الأمة المحمدية تستدعى استذكارها والعمل كفاء فضل الله تعالى بمنحهم إياها مَنًّا منه جل وعلا وفضلاً عليهم ، شكراً منهم له جل وعلا كي تدوم تلك النعم وتزيد . وإلى هذه الأمور المطلوبة من أفراد الأمّة المحمدية أشارت الآية الكريمة التالية ونصّت عليها .

---

(١) سورة محمد : ١٦ .

﴿١٥٢﴾ فَاذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ .

أصل الذكر التنبه بالقلب للمذكور والتيقظ له . وسمي الذكر باللسان ذكراً لأنه دلالة على الذّكر القلبي . غير أنه لما كثر اطلاق الذكر على القول اللساني صار هو السابق للفهم(١) .

والشكـــر : معرفة الإحسان والتحدث به . وأصله في اللغة الظّهور(٢) يقال : شكرتك وشكرت لك . ونصحتك ونصحت لك(٣) .

ولا تكفرون : نهى . ولذلك حذفت منه نون الجماعة . وهذه نون المتكلم(٤) أو الوقاية(٥) وحذفت الياء لأنّها رأس آية . وإثباتها أحسن فى غير القرآن . أى لا تكفروا نعمتي وأياديّ . والكفر هنا ستر النعمة لا التكذيب(٦) .

تبيّنّا أن الآية الكريمة السابقة يرتبط بها مظهران من أكبر مظاهر نعم الله تعالى على هذه الأمة وهما : التوجه فى الصلاة إلى المسجد الحرام وهو آخر قبلة ، واختيار خاتم الانبياء والمرسلين من أولئك الذين يتوجّه إليهم الخطاب أساساً ، وهم العرب مادة الإسلام الأولى . وهذه الآية الكريمة التي تحوّلنا إليها تنبّه إلى ضرورة شكر هذه الأمّة الله تعالى على نعمه وآلائه وعدم كفرهم لهذه النعم ، بسترها وإخفائها ، والقيام بعد ذلك بما يتمشى مع ذلك السّتر وَالإخفاء من أقوال وأفعال . إنَّ رب العزة يعد أولئك الذين يذكرونه جل وعلا بالطاعة من صلاة وتسبيح ودعاء وما إلى ذلك ، بأن يذكرهم جل وعلا بالثواب والمغفرة . وكما أمروا بذكر الله تعالى أمروا بشكره ، أي بإظهار نعمه جل وعلا وإعلانها ، والقيام بما يتمشى مع ذلك الإظهار والإعلان من إحساس عميق بالرِضا والامتنان . فبالشكر تدوم النعم وتزداد .

---

(١) تفسير القرطبي ص ٥٥٢
(٢) تفسير القرطبي ص ٥٥٣ .
(٣) تفسير القرطبي ص ٥٥٣
(٤) تفسير القرطبي ص ٥٥٤ .
(٥) البحر المحيط ١ / ٤٤٧
(٦) تفسير القرطبي ص ٥٥٤ .

وبما أننا بصدد أمرين « اذكروني » « واشكروا لي » وبما أن ثواب الذكر قد صرح به « أذكركم » عن سعيد بن جبير اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي وفى رواية برحمتي[١] ففي التصريح به دليل على ثواب الشكر المحذوف للعلم به وكأن التقدير « واشكروا لي أشكرلكم » وقد قال عز من قائل[٢] « إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم » . وقال تعالى[٣] : « ذلك الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات . قل لاأسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى . ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا . إن الله غفور شكور » . « فشكر العبد لله تعالى ثناؤه عليه بذكر إحسانه إليه . وشكر الحق سبحانه للعبد ثناؤه عليه بطاعته له . إلاَّ أنَّ شكر العبد نطق باللسان . واقرار بالقلب بإنعام الرب مع الطاعات »[٤] .

وبعد الأمر بالذكر والشكر وما ارتبط بهما من ثواب . كان النهي عن الكفران . ومعروف ما يرتبط به من عقاب . وقد قال عز من قائل[٥] : « وإذ تأذّن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إنّ عذابي لشديد » . نسأل الله سبحانه ان يجعلنا من زمرة الذاكرين الشاكرين . روى ابن ماجة عن عبدالله بن بسر أنَّ أعرابياً قال لرسول الله ﷺ : إنّ شرائع الإسلام قد كثرت عليّ فأنبئني منها بشيء اتشبث به . قال : لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله عز وجل[٦] والمعروف ان الذِكّر وحده هو الذى لم يضع الشارع الحكيم نهاية له . قال عز من قائل[٧] : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً . وسبحوه بكرة وأصيلا » وقال تعالى[٨] : « إنّ المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصّادقين والصّادقات والصّابرين والصّابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصّائمين والصّائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً » .

---

(١) تفسير ابن كثير ١٩٦/١ وانظر تفسير القرطبي ص ٥٥٢ .
(٢) سورة التغابن : ١٧ .
(٣) سورة الشورى : ٢٣ .
(٤) تفسير القرطبي ص ٥٥٣ .
(٥) سورة إبراهيم : ٧ .
(٦) تفسير القرطبي ص ٥٥٣ .
(٧) سورة الأحزاب ٤١ ، ٤٢ .
(٨) سورة الأحزاب : ٣٥ .

وفى الحديث الصحيح يقول الله تعالى : « من ذكرني فى نفسه ذكرته فى نفسي . ومن ذكرني فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه »[1] وقال الإمام أحمد : حدثنا روح حدثنا شعبة عن الفضيل بن فضالة – رجل من قيس – حدثنا أبو رجاء العطاردى قال : خرج علينا عمران بن حصين وعليه مطرف من خزلم نره عليه قبل ذلك ولا بعده فقال : إنّ رسول الله ﷺ قال : من أنعم الله عليه نعمةً فإنّ الله يحبّ أن يرى أثر نعمته على خلقه وقال روح مرّة : على عبده[2] .

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ١٩٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ١ / ١٩٦ .

﴿١٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ

نحن الآن بصدد ثاني نداء للمؤمنين فى هذه السورة[1] أما النّداء الأوّل فهو فى قوله تعالى[2] : « يا أيها الذين آمنوا لاتقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم » .

وهذه الآية الكريمة تخاطب المؤمنين بأهمّ صفاتهم « يا أيها الذين آمنوا » فنحن بصدد شهادةٍ من البرّ الرحيم على تحقق هذه الصفة العظيمة فيهم . وهم يؤمرون بأن يستعينوا على شئون الاخرة فى المقام الأوّل بالصّبر والصلاة ، وهما عماد الإسلام كما هو معروف . وواضح مناسبة الآية الكريمة لما قبلها من آيات كريمات . لقد صادف المؤمنون من خصوم الإسلام عنتا وسمعوا أذى كبيراً بسبب تحويل القبلة إلى المسجد الحرام . وهاهي ذى الآية الكريمة تأمر المؤمنين المتقين بأن يستعينوا على أوّل نسخ فى الإسلام وهو المتعلق بالتولية فى الصلاة إلى المسجد الحرام بعد أن كان إلى بيت المقدس ، بالصبّر والصلاة . ومعروف أن الصبر على ثلاثة أنواع ، صبر على البلاء ، وصبر على الطاعة ، وصبر عن المعصية . وهاهي ذى الآية الكريمة تقدّم فى الذِّكر الصبر . عماد الأمور كلها ، بما فى ذلك الصلاة . إن الصلاة بنص القرآن الكريم كبيرة الا على الخاشعين الذين يتحلون بمجموعة من النعوت ، وفى مقدمتها الصبّر . ومع أن الصّبر مرتبط بكل الأمور ، الا أنَّ ارتباطه بالصلاة كبيرٌ حقّاً ، لأن الصلاة عماد الدين ، ولأنها ثقيلة بسبب تكرارها فى كل يوم وليلة .

وإن تقديم الصبر على الصلاة فى الآية الكريمة دليل على أهميته الكبرى . وان لدينا الكثير من الأدلة على تلك الأهمية من القرآن الكريم . فعلى سبيل المثال آية البِرّ أو آية الإيمان[3] فى سورة البقرة هذه ، يأتي فيها ذكر الصبر منصوباً على الاختصاص والمدح ، وذلك فى قوله عز من قائل : « ليس البرَّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكنَّ

---

(١) البحر المحيط ١ / ٤٥٣ . (٢) سورة البقرة : ١٠٤ . (٣) الآية : ١٧٧ .

البِرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس . أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون والملائكة حينما تدخل على المؤمنين من كل أبواب الجنة تسلم عليهم وتثنى عليهم بصفة الصبر التي تحلّوْا بها . قال تعالى[1] : « جناتُ عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » .

واللطيف فى الأمر أن إقامة الصلاة لها فى القرآن الكريم الحظ نفسه من النصب على الاختصاص أو المدح ، وذلك فى قوله تعالى[2] : « لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً » .

لقد نصت الآية الكريمة على أن الله تعالى مع الصابرين بالعون والتأييد . لقد تكرر ذكر الصبر لأهميته ولأنه عماد كل الطاعات وفى مقدمتها إقامة الصلاة .

---

(١) سورة الرعد : ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) سورة النساء : ١٦٢ .

﴿١٥٤﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
أَمْوَاتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ

تبين هذه الآية الكريمة منزلة الشهيد عند ربه ، وهو الذى قتل مجاهداً فى سبيل الله تعالى كي تكون كلمة الله تعالى هي العليا . وبما أن من مات تنقطع علائقه بالدنيا ، وبما أن من استشهد فى سبيل الله تعالى كان يقال عنه : مات فلان وذهب عنه نعيم الدنيا ولذتها ، فقد نزلت الآية الكريمة ناهية عن القول عن الشهداء هم أموات بل هم أحياء[1] . ولكنا نحن الأحياء لانشعر بكيفية حياتهم بنصّ الآية الكريمة . جاء فى صحيح مسلم : إنَّ أرواح الشهداء فى حواصل طيور خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت . ثم تأوى إلى قناديل معلقة تحت العرش . فاطّلع عليهم ربك اطّلاعةً فقال : ما تبغون ؟ فقالوا : يا رَّبنا وأيّ شيء نبغي وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ؟ ثم عاد عليهم بمثل هذا . فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا قالوا : نريد أن تردّنا إلى الدار الدنيا فنقاتل فى سبيلك حتى نقتل فيك مرة أخرة – لما يرون من ثواب الشهادة – فيقول الرب جلّ جلاله : « إني كتبت أنهم إليها لا يرجعون »[2] وقد جاء فى حق الشهداء قوله تعالى فى سورة آل عمران[3] : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين » .

---

(١) انظر البحر المحيط ١ / ٤٤٨ .
(٢) تفسير ابن كثير ١ / ١٩٧ .
(٣) الآيات : ١٦٩ – ١٧١ .

﴿١٥٥﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ

ولنبلونكم : البلاء يكون حسنا ويكون سيّئاً . وأصله المحنة ... والمعنى لنمتحننّكم لنعلم المجاهد والصابر علم معاينة حتى يقع عليه الجزاء(١) .

بشـــــيء : لفظُ مفرد معناه الجمع ... أى بشيء من هذا وشيء من هذا . فاكتفى بالأول إيجازاً(٢) وأفرده ليدلّ على التقليل . إذ لو جمعه فقال بأشياء لاحتمل أن تكون ضروربا من كل واحد مما بعده(٣) .

الخـــــوف : أي خوف العدو والفزع في القتال . قاله ابن عباس(٤) .

والجـــــوع : يعني المجاعة بالجدب والقحط فى قول ابن عباس(٥) .

ونقص من الأموال : بسبب الاشتغال بقتال الكفّار(٦) .

والأنـــفس : بالقتل والموت والأمراض(٧) قال ابن عباس بالقتل والموت فى الجهاد(٨) .

والثمـرات : قال ابن عباس : المراد قلة النبات وانقطاع البركات(٩) .

فى هذه الآية الكريمة تأتي الجملة الخبرية مقسما عليها تأكيداً لوقوع البلاء(١٠) إنَّ رب العزة ليقسم بأنه سيختبر ويمتحن هذه الأمة بضروب البلاء ، كي يعلم عز وجل علم ظهور المجاهدين منهم والصابرين ويبلو أخبارهم . وقد جاء فى سورة محمد ﷺ(١١) قوله تعالى : «ولنبلونّكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم» .

---

(١) تفسير القرطبي ص ٥٥٤ .
(٢) تفسير القرطبي ص ٥٥٥ .
(٣) البحر المحيط ١ / ٤٥٠ .
(٤) تفسير القرطبي ص ٥٥٥ والجلالين والبحر المحيط ١ / ٤٥٠ .
(٥) تفسير القرطبي ص ٥٥٥ والجلالين والبحر المحيط ١ / ٤١٩ .
(٦) تفسير القرطبي ص ٥٥٥ .
(٧) الجلالين .
(٨) تفسير القرطبي ص ٥٥٥ .
(٩) تفسير القرطبي ص ٥٥٥ .
(١٠) البحر المحيط ١ / ٤٥٠ .
(١١) الآية : ٣١ .

وإنّ إسناد الفعل إليه جل وعلا صريح فى إضافة أسباب البلايا إليه ، وأنَّ هذه المحن من الله تعالى ، ووعده بها المؤمنين يدل على أنها ليست عقوبات . بل إذا قارنها الصبر أفادت درجة عالية فى الدين[1] وإنَّ افادة لفظ شيء قلة البلاء . دليل على كون رحمة الله تعالى قد سبقت غضبه وعذابه .

وإنَّ ترتيب أنواع البلاء غاية فى الاعجاز . فنحن نتبين فى أول أنواع البلاء علاقة من نوع ما بالآية الكريمة السابقة التي تتحدث عن الذين قتلوا فى سبيل الله . إنَّ هؤلاء الشهداء السعداء إنما يقتلون عادة فى ميادين الشرف والبطولة جهاداً فى سبيل الله تعالى ، ويرتبط بالحروب فى المقام الأول الخوف . وهاهي ذى الآية الكريمة تبدأ بذكر الخوف . « ولنبلونكم بشيء من الخوف » ولما كان ثمة نعمتان كبريان من الله على خلقه ، إذا تحققتا ارتبط بهما الكثير من مظاهر النعم والآلاء ، وهاتان النعمتان هما الإطعام من الجوع والأمان من الخوف ، لذا ذكرت الآية الكريمة الجوع إثر الخوف . وقد جاء فى سورة قريش مَنُّ رب العزة على قريش بهاتين النعمتين . قال تعالى[2] : « لإيلاف قريش . إيلافهم رحلة الشتاء والصيف . فليعبدوا رب هذا البيت . الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » . وقد تقدم هنا الحديث عن الطعام لأن الجوّ يعبق بشذا الأمن والأمان .

ومعروف أن هاتين الصفتين ترتبطان بالحروب كثيراً . وقد أردف هذا النوع من البلاء المرتبط بالحروب كثيراً ، أنواع أخرى ترتبط بكل من الحرب والسلم . إنَّها النقص من الأموال والأنفس والثمرات . وقد رتبت مظاهر النقص هذه ترتيباً معجزاً ، حيث إنَّها قدّمت الأكثر حدوثا الأسرع وروداً على الذى يقل عنه حدوثاً ووروداً .

إنَّ النقص يتبادر إلى الأموال بسبب الحرب وبسبب الجوائح المتلفة فى غير الحرب ، بأكثر من النقص المتبادر إلى الأنفس . وإن النقص يتبادر إلى الأنفس بالقتل والموت والأمراض ، بأكثر من النقص المتبادر إلى الثمرات بسبب قلة المياه وانقطاع البركات .

---

(١) البحر المحيط ١ / ٤٥٠ .

(٢) سورة قريش ١ - ٤ .

وختمت الآية الكريمة بالثناء على الصابرين « وبشّر الصابرين » وقد قال تعالى[1] « إنّما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » . إن الحسنة إذا كانت بعشر أمثالها وقد قال تعالى[2] :« من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسّيئة فلا يجزى الا مثلها وهم لا يظلمون ». وتظل الزيادة فى ارتفاع إلى سبعمائة مثل وما يزيد وقد قال تعالى[3] : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبّةٍ أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة . والله يضاعف لمن يشاء . والله واسع عليم » . فإنّ الصّابرين يوفيهم الله تعالى أجرهم يوم القيامة بغير حساب ، وهاهي ذى الآية الكريمة تبشر الصابرين بالعز الأكيد والثواب الجزيل فى الدنيا والآخرة . نسأل الله سبحانه وتعالى أن يؤتينا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وأن يقينا عذاب النار إنّه سميع مجيب .

---

(١) سورة الزمر ١٠ .

(٢) سورة الانعام ١٦٠ .

(٣) سورة البقرة ٢٦١ .

﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ

المصيبة : كل ما يؤذى المؤمن ويصيبه[1] وهي اسم فاعل من أصابت . وصار لها اختصاص بالشيء المكروه . وصارت كناية عن الداهية فجرت مجرى الأسماء ووليت العوامل[2] .

الآية الكريمة تبين أهم صفات الصابرين الذين قيل عنهم فى الآية الكريمة السابقة : « وبشر الصابرين » إنَّ أهم صفات المؤمنين المتقين الصابرين ، أنهم عند الصدمة الأولى ، وفى اللحظة التي تصيبهم المصيبة يجرى على لسانهم القول الذى تؤمن به قلوبهم ، وتمتلىء به نفوسهم : « إنّا لله وإنّا إليه راجعون » .

إن هذا التعبير الذى خص الله تعالى به هذه الأمة المحمدية ، وإلاّ لما جرى على لسان يعقوب عليه السلام مثلا القول كما جاء فى سورة يوسف[3] : « يا أسفى على يوسف » يشتمل على الكثير من المعاني العميقة والمرامى البعيدة . وهو ذو شقين . أولهما : إنّا لله . والمراد أنا فى هذه الحياة الدنيا ملك لله تعالى يفعل بنا ما يشاء ، فلا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل . وثانيهما أنّنا بعد هذه الحياة راجعون إليه بالبعث بعد الموت من أجل الحساب والجزاء . فإن شاء غفر بفضله . وإن شاء عذب بعدله . وما دمنا عبيداً لله تعالى ، ولا نملك من أمورنا شيئاً ، فالأولى بنا والأحرى أن نصبر فى كل الأحوال ، إن كنا فى نعمة وعافية فالصبر المطلوب هو الصبر على الطاعة وعن المعصية وإن كنا فى بلية ومصيبة فالصبر المطلوب هو الصبر على قضاء الله تعالى وقدره . وما أجزل ثواب الصوابرين . وكلما جل الخطب وعظم المصاب وكثر الصبر زاد الأجر . « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » .

روى عكرمة أن مصباح رسول الله ﷺ انطفأ ذات ليلة فقال : إنَّا لله وإنّا إليه راجعون . فقيل : أمصيبة هي يارسول الله ؟ قال : نعم . كلّ ما آذى المؤمن فهو مصيبة . قلت : هذا ثابت معناه فى الصحيح[4] وفى صحيح مسلم عن أم سلمة رضى

---

(١) تفسير القرطبي ص ٥٥٦ .
(٢) البحر المحيط ١ / ٤٥١ .
(٣) الآيـة : ٨٤ .
(٤) تفسير القرطبي ص ٥٥٦ والكشاف ١/ ٢٤٧ .

الله تعالى عنها أنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول : إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، اللهم أجرني فى مصيبتى واخلف لي خيراً منها إلا آجره الله فى مصيبته وأخلف له خيراً منها . قالت : فلما توفّي أبو سلمة قلت كما أمرني رسول الله ﷺ فأخلف الله لي خيراً منه ، رسول الله ﷺ(١) وخرّج مسلم عن أبي سعيد وعن أبي هريرة رضي الله عنهما أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول : ما يصيب المؤمن من وَصَب ولا نَصبَ ولا سَقَم ولا حَزَن ، حتىّ الهِمِّ يَهُمُّه ، ألا كُفِّرَ به من سيئاته (٢) .

وأصابتهم مصيبة من التجنيس المغاير . وهو أن يكون إحدى الكلمتين اسما والأخرى فعلا . ومنه : أزفت الآزفة إذا وقعت الواقعة(٣) .

واشتملت الآية على فرض ونفل . فالفرض التسليم لأمر الله والرضا بقدره والصّبر على أداء فرائضه . والنفل اظهار القول : إنّا لله وإنّا إليه راجعون . وفى اظهاره فوائد منها غيظ الكفار لعلمهم بجده فى طاعة الله(٤) .

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ١٩٨ .
(٢) تفسير القرطبي ص ٥٥٦ .
(٣) البحر المحيط ١ / ٤٥١ .
(٤) البحر المحيط ١ / ٤٥٢ .

﴿١٥٧﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ

صلاة الله على عبده عفوه ورحمته وبركته وتشريفه إيّاه فى الدّنيا والآخرة . وقال الزجاج : الصلاة من الله عز وجل الغفران والثناء الحسن . ومن هذا الصلاة على الميّت إنما هو الثناء عليه والدعاء له . فكرر الرحمة لما اختلف اللفظ تأكيداً وإشباعاً للمعنى . كما قال : من البّينات والهدى . وقوله : أم يحسبون أنّا لانعلم سِرَّهم ونجواهم[1] وقال ابن عباس : الصلاة من الله المغفرة[2] .

هذه الآية الكريمة تشير إلى ثواب الله تعالى للصابرين المسترجعين إذا أصابتهم مصيبة . وتبدأ الآية الكريمة باستعمال اسم الاشارة الموضوع للبعد . « أولئك » دليلاً على منزلة هؤلاء الصابرين المسترجعين الرفيعة عند بارئهم جل وعلا . وذلك على غرار قوله تعالى فى أول السورة الكريمة عن المتقين[3] : « أولئك على هدًى من ربهم وأولئك هم المفلحون » ثم إنَّ الآية الكريمة ، دليلاً على شمول غفران الله تعالى لهم وثنائه جل وعلا وبركاته المتتابعة عليهم ، تستعمل حرف الجر الدال على الاستعلاء «عليهم» وليس القول مثلا «إليهم» وقد عمق الشمول والتتابع مجيء لفظة الصلوات فى صيغة الجمع ، دليلاً على كونها صلوات يتلو بعضها بعض . ثم إنَّ لفظ الرب الدال على الخصوص ، وعلى تربية الله تعالى عباده بنعمه وآلائه ووجوب قيامهم بشكرها ، متصلا به ضمير الجماعة العائد إلى هؤلاء الصابرين المسترجعين هو الذى يستعمل وليس لفظ الجلالة « الله » الدّال على العموم ، كل ذلك دليل على منزلة هذا الفريق من المؤمنين المتقين الفريدة عند بارئهم جلّ وعلا .

ومع اشتمال لفظ الصلوات ، هكذا فى صيغة الجمع ، على رحمة البر الرحيم ، فإنَّ هذه الرحمة يصرّح بها « أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة » ويكرر اسم الاشارة الدال على سموّ المنزلة ، «أولئك» في جملة اسمية مؤكدة مقررة كون أولئك الصابرين

---

(١) تفسير القرطبي ص ٥٥٨ .
(٢) البحر المحيط ١ / ٤٥٢ .
(٣) الآيـة : ٥ .

المسترجعين الذين استحقوا الصلوات المتتابعة عليهم من ربهم جل وعلا ورحمته التي وسعت كل شيء ، هم المهتدين حقاً .

قال ابن جبير : ما أُعْطِيَ أحد فى المصيبة ما أعطيت هذه الأمة ولو أعطيها أحد قبلها لأعطيها يعقوب . ألا ترى كيف قال حين فقد يوسف : يا أسفى على يوسف[1] .

وفى البخاري : وقال عمر رضى الله عنه : نعم العِدْلان ونعم[2] العلاوة . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنّا لله وإنّا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون . أراد بالعِدْلين الصلاة والرحمة . وبالعِلاوة الاهتداء[3] والعِلاوة هي ما توضع بين العِدْلين . وهي زيادة فى الحمل . فكذلك هؤلاء أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضاً[4] .

(١) البحر المحيط ١ / ٤٥٢ .
(٢) فى تفسير ابن كثير « نعمت » .
(٣) تفسير القرطبي ص ٥٥٨ .
(٤) تفسير ابن كثير ١ / ١٩٧ .

﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ

سبب النزول :

روي البخاري عن عاصم بن سليمان قال : سألت أنس بن مالك عن الصفا والمروة فقال : كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية . فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما فأنزل الله عز وجل : إنّ الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطّوّف بهما . وخرّج الترمذى عن عروة قال : قلت لعائشة : ما أرى على أحد لم يطف بينّ الصفا والمروة شيئاً وما أبالي ألا أطوف بينهما . فقالت : بئسما قلت يا ابن أختى طاف رسول الله ﷺ وطاف المسلمون . وإنّما كان من أَهَلَّ لمناة[1] الطاغية التي بالمُشَلَّل لا يطوفون بين الصفا والمروة . فأنزل الله تعالى : فمن حجَّ البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما . ولو كانت كما تقول لكانت : فلا جناح عليه ألا يطّوّف بهما . قال الزهرى : فذكرت ذلك لأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فأعجبه ذلك وقال إنّ هذا لعلم . ولقد سمعت رجالاً من أهل العرب يقولون : إنّما كان من لا يطوف بين الصفا والمروة من العرب يقولون : إنّ طوافنا بين هذين الحجرين من أمر الجاهلية[2] .

بالنظر إلى فحوى الآية المتعلقة بالسّعي بين الصفا والمروة من أجل الحج أو العمرة ، يتبين المناسبة بين الآية الكريمة ذات العلاقة بوجه من الوجوه بأداء فريضة الحج ، الركن الخامس من أركان الإسلام ، وبين الآيات السابقات اللاتى تتحدث عن ابتلاء الله تعالى عباده ببعض الأمور التي تتطلّب الصبر فى المقام الأول . إنه بالنظر إلى فريضة الحج ،

---

(١) مناة : اسم صنم فى جهة البحر مما يلي قُدَيْداً بالمُشَلَّل على سبعة أميال من المدينة . والمشلّل : جبل يهبط منه إلى قديد من ناحية البحر .

(٢) تفسير القرطبي ص ٥٥٩ وانظر البحر المحيط ١/٤٥٦ وتفسير ابن كثير ١/١٩٨ الذى علق على حديث عائشة : « أخرجاه فى الصحيحين » ١/١٩٩ .

ويلحق به العمرة ، من زاوية ما يصادف المسلم من مشقة ، بالقياس لما يصادفه من مشقة في أداء الأركان الثلاثة السابقة ، الصلاة والزكاة وصوم شهر رمضان ، يتبين أن حظ الحج من المشقة هو الأكبر حقاً ، ومن ثم كانت الحاجة معه إلى الصَّبر الذى نصَّت عليه الآيات الكريمات السابقات هو الأكبر . والدليل على حاجة الحج الأكبر إلى الصبر هو أن رحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء ، ألزمت المسلم بأداء هذا الركن مرة واحدة طوال عمره . ولم يقف الأمر عند هذا الحد إنّما تجاوزه إلى كون الأداء مشروطاً بالاستطاعة . قال تعالى(١) « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً . ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » والمعروف أنّ الحج إلى بيت الله تعالى الحرام يصح أن يرتبط به بالاضافة إلى الصلاة ركنا الإسلام الثالث والرابع أعنى الزكاة ، وإنّ الصدقة لاحقة بها ، والصيام . كما أن الركن الأول ، شهادة ألا إله ألا الله محمد رسول الله يتجلى فى الحج بقوة عجيبة . ويكفي أن يقال إنَّ الحجّ إلى بيت الله تعالى تتجلّى فيه الطاعة المطلقة لله تعالى وللرسول الكريم والحب المطلق بدرجة كبيرة وإلى الحد الذى لايكون معه مجرد التفكير فى الحكمة من أداء هذه الشعيرة أو تلك فضلا عن البحث عنها أو التقصى في البحث . إنَّ المواقف كلها دليل طاعة وحب فقط ، وإنّ الصبر عماد أداء هذه الأمور على الوجه المطلوب . فرباط الصبر يشد الآية الكريمة إلى ما سبقها من آيات كريمات شدا وثيقا .

الصفا والمروة : جبلان بمكة المكرمة(٢) والألف واللام لزمتا فيهما للغلبة . كهما فى البيت للكعبة والنّجم للثّريا(٣) .

وأصل الصفا فى اللغة الحجر الأملس . والصفا مقصور جمع صفاة وهي الحجارة الملس(٤) وقيل من شروط الصفا البياض والصلابة . واشتقاقه من صفا يصفو أي خلص من التراب والطّين(٥) والصّحيح

---

(١) سورة آل عمران : ٩٧ .
(٢) الجلالين .
(٣) البحر المحيط ١ / ٤٥٤ .
(٤) تفسير القرطبي ص ٥٦١ .
(٥) تفسير القرطبي ص ٥٦١ .

أن المروة الحجارة صليبها ورخوها الذى يَتَشَظَّى وترقّ حاشية ... وقد قيل إنّها الحجارة السود . وقيل : حجارة بيض برّاقه تكون فيها النار[1] .

من شعائـــر الله : أي من معالمه ومواضع عباداته . وهي جمع شعيرة والشعائر المتعبدات التي أشعرها الله تعالى ، أى جعلها أعلاماً للناس من الموقف والسعى والنحر .

والشعار والعلامة . يقال : أشعر الهدى أعلمه بغرز حديدة في سنامه من قولك أشعرت أى أعلمت[2] .

فمن حج البيت : أي قصد ، وأصل الحج القصد[3] .

أو اعتمـــــر : أي زار والعمرة الزّيارة[4] .

ثم صار الحج والعمرة علمين لقصد البيت وزيارته للنّسكين المعروفين وهما فى المعانى كالبيت والنّجم في الأعيان[5] .

فلا جناح عليه : أى لا إثم . وأصله من الجنوح وهو الميل ، ومنه الجوانح للأعضاء لاعوجاجها[6] وأصل الجناح الميل إلى المأثم ثم أطلق على الإثم . يقال : جنح إلى كذا جنوحاً مال . ومنه جنح الليل ميله بظلمته . وجناح الطائر .

تطـــــوّع : تفعّل من الطّوع وهو الانقياد[7] والتّطوّع ما تترغب فيه من ذات نفسك مما لا يجب عليك . ألا ترى إلى قوله فى حديث ضمام : هل عليّ غيرها ؟ قال : لا . إلاّ أن تطوّع أى تتبرع . هذا هو الظاهر . فيكون المراد التبرع بأيّ فعل طاعة كان[8] .

---

(١) تفسير القرطبي ص ٥٦١ .
(٢) تفسير القرطبي ص ٥٦١ .
(٣) تفسير القرطبي ص ٥٦١ .
(٤) تفسير القرطبي ص ٥٦٢ .
(٥) البحر المحيط ١ / ٤٥٤ .
(٦) تفسير القرطبي ص ٥٦٢ .
(٧) البحر المحيط ١ / ٤٥٤ .
(٨) البحر المحيط ١ / ٤٥٨ .

تبين الآية الكريمة أن السّعي بين الصفا والمروة من شعائر الله وأعلام مناسكه ومتعبداته جل وعلا . فمن قصد البيت من أجل الحج أو زاره من أجل العمرة ، فلا إثم عليه في السعي بين الصفا والمروة ، خلافاً لمن ظن ذلك ممن يرى أنهما من أمر الجاهلية « فمن أتى بشيء من النوافل فإنّ الله يشكره . وشكر الله للعبد اثابته على الطاعة »(١) عليم ، بنوايا الإنسان وما يأتيه من قول أو فعل .

روى الترمذى عن جابر(٢) أن النبي ﷺ حين قدم مكة فطاف بالبيت سبعا قرأ : واتّخذوا من مقام إبراهيم مصلّى . وصلّى خلف المقام . ثم أتى الحجر فاستلمه ثم قال : نبدأ بما بدأ الله به . فبدأ بالصفا وقال : إنّ الصّفا والمروة من شعائر الله . قال هذا حديث حسن صحيح . والعمل على هذا عند أهل العلم أنه يبدأ بالصفا قبل المروة . فإن بدأ بالمروة قبل الصفا لم يجزه ويبدأ بالصفا .

واختلف العلماء فى وجوب السعى بين الصفا والمروة فقال الشافعي وابن حنبل هو ركن . وهو المشهور من مذهب مالك لقوله عليه السلام : اسعوا فإن الله كتب عليكم السعى . خّرجه الدار قطنى . فكتب بمعنى أوجب لقوله تعالى : « كتب عليكم الصيام . وقوله عليه السلام : خمس صلوات كتبهن الله على العباد ... وقال أبو حنيفة واصحابه والثّورى والشعبي : ليس بواجب ، فإن تركه أحد من الحجاج حتى يرجع إلى بلاده جبره بالدّم ، لأنه سنّة من سنن الحج . وهو قول مالك فى العتبية(٣) وروي عن ابن عباس وابن الزبير وأنس بن مالك وابن سيرين أنه تطوّع لقوله تعالى : ومن تطوّع خيراً(٤) والصّحيح ما ذهب إليه الشّافعي رحمه الله تعالى لما ذكرنا وقوله عليه السلام : خذوا عنّي مناسككم . فصار بياناً لمجمل الحجّ . فالواجب أن يكون فرضا كبيانه لعدد

---

(١) تفسير القرطبي ص ٥٦٤ .

(٢) وانظر هنا تفسير ابن كثير ١ / ٩٩ ففيه : « وفى صحيح مسلم من حديث جابر الطويل وفيه أنّ رسول الله ﷺ لمّا فرغ من طوافه بالبيت ... ثم قال أبدأ بما بدأ الله به ...»

(٣) كتاب لفقيه الأندلس محمد بن أحمد بن عبد العزيز العتبى القرطبي المتوفي سنة ٢٥٤ هـ فى مذهب الإمام مالك نسبت إلى مؤلفها .

(٤) تفسير القرطبي ص ٥٦٤ .

الركعات وما كان مثل ذلك إذا لم يتفق على أنه سنة أو تطوع . وقال طُلَيْب : رأى ابن عباس قوماً يطوفون بين الصفا والمروة فقال : هذا ما أورثتكم أُمُّكُمْ أمّ إسماعيل . قلت: وهذا ثابت فى صحيح البخاري[1] ويقول ابن كثير[2] : « فقد بيّن الله تعالى أن الطّواف بين الصفا والمروة من شعائر الله أى ممّا شرع الله تعالى لإبراهيم فى مناسك الحج وقد تقدّم فى حديث ابن عباس أنَّ أصل ذلك مأخوذ من طواف هاجَر وترددها بين الصفا والمروة فى طلب الماء لولدها لما نفد ماؤهما وزادهما حين تركهما إبراهيم عليه السلام هنالك وليس عندهما أحد من الناس فلما خافت على ولدها الضّيعة هنالك ونفد ما عندهما قامت تطلب الغوث من الله عزّ وجل . فلم تزل تتردد فى هذه البقعة المشرّفة بين الصفا والمروة متذلّلة خائفة وجلة مضطرة فقيرة إلى الله عز وجل حتى كشف الله كربتها وآنس غربتها وفرّج شدّتها وأنبع لها زمزم التي ماؤها طعام طعم وشفاء سقم ... » .

---

(١) تفسير القرطبي ص ٥٦٤ وانظر تفسير ابن كثير ١ / ١٩٩ .

(٢) ١ / ١٩٩ .

﴿١٥٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ

الآية نزلت فى أهل الكتاب وكتمانهم آية الرجم وأمر النبي ﷺ . وذكر ابن عباس ان معاذا سأل اليهود عماّ في التوراة من ذكر النبي ﷺ فكتموه إيّاه . فأنزل الله هذه الآية . والكاتمون هم أحبار اليهود وعلماء النصارى وعليه أكثر المفسرين(١) وقد كتم اليهود أمر الرجم(٢) ومع أن الآية الكريمة تعنى فى المقام الأوّل أحبار اليهود ورهبان النصارى الذين يكتمون أمر محمد ﷺ (٣) فإنّها وراء ذلك تشمل كل من كتم علماً نافعاً . وقد ورد فى الحديث المسند من طرائق يشد بعضها بعضاً عن أبي هريرة وغيره أن رسول الله ﷺ قال : من سئل عن علمٍ فكتمه ألجم يوم القيامة بلجامٍ من نار(٤) .

والمراد بالبيّنات : الآيات الواضحات والحجج الدالّة على نبوته ﷺ . والكتاب اسم جنس والمراد جميع الكتب المنزلة(٥) وأصل اللّعن فى اللّغة الإبعاد والطّرد(٦) والمراد أن الله تعالى يبعدهم من رحمته وثوابه ويتبرأ منهم . ويلعنهم اللاعنون : قال قتادة والرّبيع : المراد باللاعنون الملائكة والمؤمنون . قال ابن عطية : وهذا واضح جارٍ على مقتضي الكلام(٧) .

فى هذه الآية الكريمة يتبين عظم الذنب الذى يرتكبه من يكتم علماً نافعاً . كما يفهم فى المقابل عظيم الثواب الذى يستحقه العالم الذى يبين ما وهبه الله تعالى من علم نافع . إنّ الذين يكتمون ما أنزل الله تعالى ، ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تستعمل نون العظمة «أنزلنا» دليلاً على عظم المنزل به ، وهو العلم النافع فى هيئة الآيات البينات ، والدلائل

---

(١) البحر المحيط ١ / ٤٥٨ وانظر تفسير القرطبي ص ٥٦٥ .
(٢) تفسير القرطبي ص ٥٦٥ . (٣) تفسير القرطبي ص ٥٦٥ .
(٤) تفسير ابن كثير ١ / ٢٠٠ وانظر تفسير القرطبي ص ٥٦٥ والبحر المحيط ١ / ٤٥٩ .
(٥) تفسير القرطبي ص ٥٦٧ . (٦) تفسير القرطبي ص ٥٦٧ .
(٧) تفسير القرطبي ص ٥٦٧ .

الواضحات ، والهداية إلى الطريقة التي هي أقوم ، من بعد ما بيّنه الله تعالى فى الكتب السماوية المنزلة ووصل إلى الناس جميعاً عن طريق رسل الله تعالى فى صورته الكاملة الصحيحة ، إن الذين يكتمون العلم النافع الذى أنزله الله تعالى لهداية الناس أجمعين « أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » وجاء بأولئك ، اسم الإشارة البعيد تنبيها على ذلك الوصف القبيح(١) فأولئك يستحقون أن يلعنهم الله تعالى بطردهم من رحمته ، وأن يلعنهم اللاعنون الملائكة ومؤمنو الثقلين ، قاله الربيع بن أنس(٢) .

ودليلاً على استحقاق كاتمى العلم النافع للعن الأكيد منه جل وعلا ، كان فى قوله تعالى : « أولئك يلعنهم الله » عدول عن الضمير العائد على الذات العلية والتفات إلى الاسم ، وفى ذلك من الفخامة ما فيه . كما جاءت جملة «يلعن» فى صيغة الزمن المضارع الدال على تجدد الوصف لتجدد سببه ومقتضيه(٣) .

وإذا كان كاتم العلم يستحق اللعنة ، فإن العالم الذى ينشر العلم النافع يستغفر له كل شيء حتى الحوت فى الماء والطير فى الهواء(٤) .

ويقول القرطبي فى تفسيره(٥) : « لمّا قال : من البيّنات والهدى ، دلّ على أنّ ما كان من غير ذلك جائز كتمه . لاسيمّا إن كان مع ذلك خوف ، فإنّ ذلك آكد فى الكتمان . وقد ترك أبو هريرة ذلك حين خاف فقال : حفظت عن رسول الله ﷺ وعاءين فأمّا أحدهما فبثثته وأما الآخر فلو بثثته قُطِع هذا البُلعوم . أخرجه البخاري . قال أبو عبدالله(٦) البُلعوم : مجرى الطعام . قال علماؤنا : وهذا الذى لم يبثّه أبو هريرة وخاف على نفسه فيه الفتنة أو القتل ، إنما هو مما يتعلق بأمر الفتن . والنّصّ على أعيان المرتدّين والمنافقين ونحو هذا مما لا يتعلق بالبيّنات والهدى . والله تعالى أعلم .

وقد عرفنا أن فريقاً من أهل الكتاب قد كتموا الحق وكتموا العلم النافع ، ومن ذلك نعته ﷺ وعلمهم اليقينيّ بكون المسجد الحرام قبلة إبراهيم عليه السلام ، فلهم من التهديد والوعيد أو فى نصيب .

---

(١) البحر المحيط ١ / ٤٥٩ .
(٢) البحر المحيط ١ / ٤٥٩ .
(٣) انظر البحر المحيط ١/ ٤٥٩ .
(٤) تفسير ابن كثير ١ / ٢٠٠ .
(٥) ص ٥٦٦ .
(٦) كنية البخاري رضى الله عنه .

﴿١٦٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ

تستثنى الآية الكريمة من الذين يكتمون ما أنزل الله تعالى من البيّنات والهدى ممن يستحقون لعنة الله تعالى ولعنة من تصح منه اللعنة ، أولئك الذين تابوا إلى الله تعالى ، ورجعوا عن ذلك ، وندموا على ما بدر منهم ، وقدّموا الدليل العملي ، قولاً وفعلاً ، على توبتهم النصوح . ومِنْ أكبر الأدلة على توبتهم إزالة السبب الذى من أجله استحقوا أن يُلْعنوا بأن يُبَيّنوا للناس ما علّمهم الله تعالى .

إنّ الذين تتحقق فيهم تلك الصفات الحسنة ، يستحقون أن يشار إليهم هذه المرة فى معرض الاستحسان باسم الاشارة «أولئك» دليلاً على رضا الله تعالى عنهم ومنزلتهم الرفيعة التي اكتسبوها عند بارئهم جل وعلا ، بعد أن تفضل الله تعالى عليهم فقبل توبتهم لتحقق شروطها من الإقلاع عن الذنب والندم عليه وإعطاء الدليل العملي على صدق التوبة . وإذا كانت توبة الله تعالى عليهم تعتبر مظهراً من مظاهر رحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء ، فإنّ الصيغة التي يشار فيها إلى التوبة هي صيغة المبالغة «التواب» ولا يقف فضل الله تعالى عند حد الرحمة المفهومة ضمنا من صيغة المبالغة «التواب» إنّما يتجاوزه إلى التّصريح بهذه الرحمة ، وفى صيغة المبالغة «الرحيم» ما أرأفه جلّ وعلا بعباده وأشد رحمته بهم : « وقد ورد أن الأمم السابقة لم تكن التوبة تقبل من مثل هؤلاء منهم ولكن هذا من شريعة نبيّ التوبة ونبي الرحمة صلوات الله وسلامه عليه »[1] .

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ٢٠٠ .

﴿١٦١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ

إذا كانت الآية الكريمة السابقة قد فتحت باب التّوبة على مصراعيه لمن تاب وآمن وعمل صالحاً وبيّن للنّاس ما آتاه الله تعالى من علم نافع ، فإن هذه الآية الكريمة تتحدث عن الفريق المقابل ، عن الذين كفروا ، وظلّوا على كفرهم حتى توفاهم الله تعالى . إنَّ هؤلاء الذين كفروا وماتوا وهم كفار عليهم لعنة الله تعالى والملائكة والناس أجمعين . ويلاحظ أنَّ هؤلاء الذين ماتوا على كفرهم ، يستحق فعلهم الشّنيع أن يُشارَ إليه ، على غرار سابقه من نوعه ، باسم الاشارة الدال على البعد «أولئك» ثم إنَّ حرف الجر الدال على الاستعلاء «على» هو المستعمل فى حقهم «عليهم» دليلاً على شمول اللعنة لهم واحاطتها بهم واستحواذها عليهم . وقد ابتدأت اللعنة عليهم من الله تعالى الذى له الخلق والأمر ، تلتها اللعنة من الملائكة المقرّبين الذين لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . ثم كانت اللعنة عليهم أخيراً من الناس أجمعين ، إمَّا فى هذه الحياة الدنيا من المؤمنين الذين تصح أن تصدر اللعنة منهم . وإمّا فى الحياة الآخرة من كل الناس حينما يلعن بعض الكافرين بعضاً ، إضافة إلى اللعنة التى حلت بهم من الله تعالى ومن الملائكة ومن المؤمنين .

﴿١٦٢﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ

ويصحّ أن يعود الضمير من « فيها » إلى اللّعنة فى الآية الكريمة السّابقة ، لأنها أقرب مذكور . كما أنّه يصح أن يعود إلى نار جهنم المفهومة ضمنا ، والتي عبرّ عنها باسم الضمير ، تفخيماً لشأنها ، والتى أشير إليها بصفة من أهمّ صفاتها ، ألا وهي صفة خلود الذين ماتوا وهم كفار فيها . إنَّ الضمير يصح أن يعود إلى كل من اللعنة والنار . وبالتالى يكون المعنى فى حالة عودة الضمير إلى اللّعنة أنَّ الكافرين خالدون فى هذه اللعنة التى تعنى دخولهم النار وخلودهم فى العذاب الذى لا يخفف عنهم ولا يؤخر . وفى حالة عودة الضمير إلى النار يكون المعنى أن هؤلاء الكافرين خالدون فى النار التى لا يخفف عنهم عذابها ولا يؤجل « ولا هم ينظرون » من الإنظار أى لا يمهلون ولا يؤجلون . أو لا ينتظرون ليعتذروا . أو لا ينظر إليهم نظر رحمة »[1] .

ولا مانع من ترجيح الرأى القائل إنَّ الضمير يعود إلى نار جهنم رغم كونها غير مذكورة . والسّبب وراء هذا الترجيح يكمن فى كون لفظة الخلود ، ترتبط فى القرآن الكريم فى حالة العقاب ، بصريح لفظ النار ، أو لفظ جهنم ، أو لفظ العذاب ، أو لفظ السعير . ولم يرتبط فى القرآن الكريم مرّة من المرات لفظ الخلود بصريح لفظ اللعنة . وإنَّ الآية الكريمة التى نحن بصددها هى ذات الآية الكريمة الثامنة والثمانين من سورة آل عمران ، وقد جاءت فى سياق كبير الشبه بسياق الآية الكريمة فى سورة البقرة . قال تعالى[2] : « كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات . والله لا يهدى القوم الظالمين . أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . خالدين فيها لا يُخَفّفَ عنهم العذاب ولا هم ينظرون . إلاَّ الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإنَّ الله غفور رحيم » .

---

(١) الكشاف ١ / ٢٤٨ .

(٢) سورة آل عمران ٨٦-٨٩ .

وفى حال قبول هذا الرأى يكون استعمال اسم الضمير بدلاً من اسم النار الظاهر من قبيل تفخيم شأنها ، ومن أجل وضوح المعنى وقرب تناوله .

وفى حال الذهاب إلى كون الضمير عائداً إلى اللعنة لأنها أقرب مذكور ، يكون الخلود فى النار من مستلزماتها . فليس فى حقيقة الأمر ثمة كبير فرق بين الرأيين أو التفسيرين .

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾

دارت الآيات الكريمات السّابقات حول كتمان الحق والتحذير من كتمان العلم النافع، والآيات الواضحات. وها هى ذى الآية الكريمة تبيّن أن أهمَّ ما ينبغي إظهاره وأهم ما يجب إعلانه وأول ما يلزم تبيينه هو حقيقة الإله الواحد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

قال ابن عباس رضى الله عنهما: قالت كفار قريش: يا محمد انسب لنا ربّك. فأنزل الله تعالى سورة الاخلاص وهذه الآية. وكان للمشركين ثلاثمائة وستون صنما. فبيّن الله أنه واحد(١).

ومع أنَّ الآية نزلت فى مناسبة خاصّة فإنّها وراء ذلك عامة فى خطابها لكل العباد. إنَّ على كلّ النّاس أن يعلموا يقيناً أنَّ إلٰههم إلٰهٌ واحد لا إله إلاّ هو الرحمن الرحيم.

والرحمن عظيم صفات الله تعالى الواحد الأحد، وهو صيغة مبالغة يفيد شمول رحمة الله تعالى كل الخلائق.

والرحيم صيغة مبالغة يفيد رحمة معينة خاصة بالمؤمنين وقد قال تعالى(٢) « وكان بالمؤمنين رحيماً».

وإنّ الآية الكريمة التّالية تشير إلى بعض مظاهر قدرة هذا الإله الواحد الذى لا إله إلا هو.

---

(١) تفسير القرطبي ص ٥٧١.

(٢) سورة الأحزاب ٤٣.